الباب الثالث

انتقال المنهج إلى جميع العلوم

"من لم يشك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر. ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال".

الغزالي

obeikandl.com

الفصل الأول

هذا العلم دين

منهج الشافعي في أصول الفقه منهج للوحدة الفكرية تضبطها قوانين عامة استطرد العلماء بها إلى العلوم التطبيقية والكونية من فلك وطبيعة وكيمياء ورياضة وطب وجغرافيا وجيولوجيا وغيرها من العلوم.

والعقلية الإسلامية، بوجه عام تنطلق من القرآن والسنة، فهما درسها الأول. لا تكاد تجد عالما أو متعلما في القرون التي سنتحدث عنها لم يبدأ بحفظ القرآن والسيرة[٢٣]، وقد يزداد فيدرس اللغة والأدب، فإذا رقي في سلم العلم كانت فنون المناظرة أو علوم الكلام أو أصول الفقه أو ضروب الفلسفة بعض درجاته، وإذا تخصص في العلوم الأخرى أو صناعة التأليف والتدريس أو العلوم الرياضية والتجريبية أو التطبيقية، كان القرآن عماده بمنهج التفكير الذي رسمه.

وإنك لتجد خلفاء فقهاء، وذوي حرف فقهاء كعمر بن عبد العزيز في بني أمية والمأمون في بني العباس ولهما في كل من دولتيهما أمثال أقل درجة. وتجد أبا حنيفة من كبار التجار، وتجد أسماء كثير من الصناعات والتجارات ينسب إليها الفقهاء الكبراء من أهل السنة، كالقفال والصابوني والكرابيسي والتيان والنعالي والقدوري، ومن الشيعة علماء صيارفة من أهمهم مؤمن الطاق وعطارون من أهمهم نصر بن مزاحم وبائع لؤلؤ كالشيخ آدم وعبد الله بن ميمون القداح يبري القداح.

بل تجد خبازا يتكلم في مسألة فقهية فيحاجج الفقهاء. روى ابن العربي (٥٤٣) أن أبا الفضل المراغي عزم العودة من بغداد إلى المراغة (في وسط آسيا) فراح يشتري سفرته من بائع

---

(٢٣) ورد في البداية والنهاية لابن كثير (روى محمد بن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه: سمعت علي بن الحسين (الإمام زين العابدين) يقول: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم سورة من القرآن).

خبز فسمعه يقول لخباز آخر: أما سمعت الواعظ يقول "إن ابن عباس يجوز الاستثناء في اليمين ولو بعد سنة؟ ولو كان ذلك صحيحا لما قال الله لأيوب عليه السلام: (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) وما الذي يمنعه أن يقول: قل إن شاء الله" قال المراغي: قلت لنفسي لا أخرج أبدا من هذا البلد. وبقى في بغداد.

وسترى العلماء في غير علوم الدين والفقه واللغة مقاما عاليا في هذه العلوم ومنهم "موسوعيون" في المعرفة راسخة أقدامهم في الفلسفة. والعالم الكبير في العصر حري بأن تكون له هذه الصفة.

وقد نشأت فلسفة الإسلام في دوائر علم الكلام وأصول الفقه، وازدهرت في مجالس المناظرة وفي المؤلفات وفي الخلافات بين أصحاب الآراء المتعارضة أو المتقاربة. وبلغت مبالغ رفيعة في مؤلفات العلماء التطبيقيين،مثل الكندي وجابر بن حيان والرازي وابن الهيثم والبيروني وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وكانت عدة المتناظرين حجاجا بأصول الفقه بوجه عام.

لقد فرض القرآن والسنة طلب العلم على كل مسلم. ورأى الرسول مجلسين في المسجد فاختار مجلس التعليم وقال: "بالتعليم أرسلت" وشهد المسلمون أصحابه معلمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد، ثم رأوا علماء القرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء: كابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وأخيه عروة وابني عبد الرحمن بن عوف أبي مسلمة وأخيه حميد. وعلى هذا الجيل تعلم "فقهاء المدينة السبعة" في القرن الثاني للهجرة.

ولما قال عليه الصلاة والسلام "تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله. والله سائلكم عنه" كان يقربه من العبادة كما يعلن أن حق المتعلم في العلم واجب على العلماء لله وللناس:كان ابن عمر يحاول جهده أن يصنع ما كان يصنعه رسول الله فكان قدوة للجميع في تحمل مسئولية التعليم والترغيب فيه مع الورع المعهود عنه. يقول تلميذه مجاهد: "صحبت ابن عمر لأخدمه فكان يخدمني".

ومن التناصح في العلم كان الشعبي (١٠٣) يقول: "والله لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة واحدة لعدوا علي تلك المرة". فما بالك بالاستهتار أو الخيانة!

وفي المائة الثانية للهجرة كان مالك بن أنس يقول للناس: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم" وأبو حنيفة يقول لتلاميذه: "إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا".

ومن التناصح في العلم كان نقله تعبدا. يقول الزهري في القرن الأول: "الإسناد من الدين" وفي القرن الثاني كان سفيان الثوري يقول "الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح بأي شئ يقاتل". وتصاعد اهتمام المسلمين بتحري النص في صحته وروايته بتعاقب القرون. فسمعنا إبراهيم بن سعيد الجوهري يقول: "كل حديث لم يكن عندي من مائة فأنا فيه يتيم" وقرأنا قول حماد بن زيد: "إذا خالفني شعبة تبعته لأنه كان يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة، وأنا أرضى أن أسمعه مرة".

وفي القرن الثاني للهجرة بلغ الفقه شأوه على أيدجي رجال ليس لهم في التاريخ التشريعي في العالم نظراء: أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل والآخرين، ليستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها ينبوعا دافقا لتطوير الفكر في خدمة الشريعة ووسائلها في نشر الحضارة. وكانت العقول الإسلامية مواتية، وستبقى كذلك أبدا.

لقد رجع الرشيد من إحدى حجاته في إبان حكمه الذي دام نيفا وعشرين عاما،نبهه فيها الفضيل بن عياض الزاهد على نشر العلم، فبعث إلى الأمصار ليكتبوا:

١- من ولي الأذان في ألف من العطاء.

٢- ومن جمع القرآن وطلب العلم وعمر مجالس الأدب في ألفي دينار.

٣- ومن استبحر في ذلك وتفقه في أربعة آلاف. قال عبد الله بن المبارك (فما رأيت بعد أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين علماء أكثر منهم في أيام الرشيد. كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان. ويستبحر في العلم والفقه والحديث ويناظر العلماء وهو ابن إحدى عشرة).

* * *

وحسبك هذه السياسة دليلا على نشر العلم ومكانته في الأمة. ومن الأدلة على تفانيها في طلبه وجمعه وبلوغ الغاية في تمحيصه أول قضية أدبية في التاريخ الإسلامي (قضية المدونة).

فمدونة مالك في الفقه على ما يقول ابن رشد (الجد) (موضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة) يقصد فاتحة الكتاب. والعرب تسمي كل أمر جامع أما. والمدونة ليست من تأليف مالك. بل وضع أساسها أسد بن الفرات حين جمع ستا وثلاثين ألف مسألة أعدها من فروع فقه أبي حنيفة إذ تتلمذ على محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة في بغداد، وقصد بها إلى مصر فأجابه عنها عبد الرحمن بن القاسم (١٢٣- ١٩١) بفقه مالك. وكان أسد يقول مشيرا إلى ابن القاسم: "إن كان مالك قد مات فهذا مالك" وأطلق أسد على مجموعته اسم "الأسدية".

واستنسخ الزملاء الأسدية فرفض أسد فقاضوه إلى عمرو بن مسروق الكندي. ورفض القاضي دعواهم وقال: وأي سبيل لكم عليه؟ رجل سأل رجلا فأجابه. ها هو ذا المسئول بين أظهركم فاسألوه. وحسمت القضية، وبقيت مسئولية القاضي أمام الله عن نشر العلم فتوجه إلى أسد برجاء: أن يمكن زملاءه من النسخ واستجاب أسد حتى فرغوا منها.

وعاد أسد إلى القيروان في تونس. فلقد بدأت رحلته لطلب العلم منها إلى مالك في المدينة. ثم محمد بن الحسن ببغداد، ثم ابن القاسم بمصر .وفي تونس جاءه رسول ابن القاسم يستعيد الأسدية ليصحح بعض إجاباته فرفض،وأسمع الناس الأسدية وفيهم سحنون (عبد السلام بن سعيد). فاحتال سحنون حتى نسخها وسافر إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فصحح ما شاء. وسمع سحنون زملاء ابن القاسم العظماء في تاريخ المذهب المالكي (أشهب، وابن وهب، وابن عبد الحكم)وصحب الأخير عدلا له على بعير فحج معه، ثم قصد إلى بغداد فسمع الأحياء من تلاميذ أبي حنيفة، وعكف على مجموعته فرتبها، وبوبها، وأضاف إليها ما تعلمه على السابقين، وما وجده في موطأ مالك من أحاديث وآثار فصارت كتاب الفقه المالكي الجامع وسماها (المدونة) ورجع بها إلى القيروان فدرسها وانتشرت في الآفاق.

فهذا كتاب واحد شاركت فيه أصقاع الإسلام والفحول من علمائه، ومنهم المقيمون والضاربون آباط الإبل ليل نهار في الصحارى الشاسعة، يحملون جميعا أمانة نشدان الكمال في العلم وتعليمه[٢٤].

---

(٢٤) وأسد بن الفرات يمتاز بابتكار الأفكار. فهو صاحب الفكرة ومنفذها بجمع الأسدية ويمتاز كذلك بأنه درس مذهب أبي حنيفة بتونس بعد ذلك ليبقى مذهبها حتى اليوم ويستمر الرجل العظيم في ابتكاراته فيقترح على زيادة الله بن الأغلب فتح صقلية للإسلام فيعهد إليه بقيادة الأسطول مع بقائه قاضيا للقضاة وتجزي السماء الرجل الصالح فتضيف إلى مجد القدوة منه في الاجتهاد، مجد الاستشهاد على رأس الجيش فيدفن تحت أسوار عاصمة الجزيرة المفتوحة سراقوسة سنة ١٣ كما دفن أبو أيوب الأنصاري تحت أسوار القسطنطينية.

* * *

وجلس الأمراء والخلفاء إلى العلماء ومنهم الرشيد والأمين والمأمون. وصار الأخير حجة في كثير من العلوم، وكان له مرصد فلكي بجوار قصره. أخذ مرة على قاضيه بشر بن الوليد اثنى عشر وجها من وجوه الخطأ في حكم واحد ولكل وجه سنده في الفقه والحديث. وتبارى الخلفاء في الانتساب إلى العلم وفي معاونة رجاله وتمكين الجميع منه وبلغ أكثرهم في الإنفاق عليه حد الإغداق، وفي عهد المأمون وخلفيه علا شأن الإمام أحمد بن حنبل ووضعت أسس مذهبه ومكن لأصحاب حديث رسول الله ﷺ، فكانوا جد حريصين على صحة رواياته.

يسأل علي بن المديني وهو من زملاء الإمام أحمد بن حنبل عن رواية أبيه فيجيب: (هو الدين إنه ضعيف) وله في ذلك أسوة في وكيع بن الجراح إذ يروي الحديث عن أبيه فيعزز رواية أبيه بمثلها، لا لعيب في أبيه، وإنما لمجرد ولاية أبيه على بيت المال. والمحدثون لا يرضون العمل في خدمة السلطان، مخافة أن يتصاغر المحدث بين يديه لسبب أو لآخر، ويرجون له جلال المظهر مع كمال المخبر. قيل لمحدث: لم تركت رواية فلان؟ فأجاب (لأني رأيته يركض على برذون فتركت حديثه) بل كانوا يتخاشنون إذا أخطأ راو في حرف ليس من متن الحديث. مثل محمد بن عثمان بن شيبة (٢٩٧) يخاشن مطين الحضرمي عشرين عاما لأن الأخير روى عن (أبي سعد) والصحيح (عن أبي سعيد) هكذا كان نسيان نقطتين تحت حرف مسألة دينية.

وفي عهد الرشيد نشأت دار الحكمة فصارت مكتبة عامة وبلغت شأوها في حكم المأمون (١٩٨– ٢١٨) وفيها عمل الكندي والخوارزمي. وكان في مكتبة المأمون ٤٠٠ ألف كتاب، ثم صارت للوزراء وأعيان الدولة مكتبات ذوات شأن كمكتبة الصاحب بن عباد (٣٨٤) وقد حملها أربعمائة بعير، لها فهرست يقع في مجلدات عشرة. وفي كل مسجد مكتبة وحلق تتحلق حول الأساتذة في كل فن من فنون العلم. وفي القرن الرابع ذاته كان لابن فورك الفقيه (٤٠٦) مكتبة شهيرة في نيسابور وفي القرن الخامس مكتبة للبيهقي (٤٥٠) وأخرى لإمام الحرمين (الجويني) ولما بنيت المدرسة النظامية سنة ٤٥٧ لم تكن أول المدارس وبلغت نفقة المدرسة ٦٠.٠٠٠ دينار في العام.

وتكاثرت المكتبات والمدارس العامة والخاصة في الأمصار وعلا شأن الوراقة وغلت أجور النساخين في المشرق والمغرب، وغدا من المباهج إظهار الكتب، فصار أهل قرطبة بالأندلس يزينون بها دورهم. وفي القاهرة أنشأ المعز لدين الله (٣٦٥) خزانة للكتب بلغت في عصر صلاح الدين ملونا وستمائة ألف كتاب منها ١٨ ألف في العلوم القديمة. وازداد عدد

المراصد من بخارى وسمرقند في الشرق حتى برشلونة بالغرب، وكان لبعض الخلفاء مراصد تلحق بالقصر كالمكتبات يزاولون فيها التجارب.

وليي غريبا وقد بلغ العلم هذا المبلغ أن تكون في قصر الرشيد (١٩٣) ببغداد مائة جارية يحفظن القرآن، أو أن يكتر الجاحظ (دكانا) من دكاكين الوراقين يبيت فيه ليقرأ محتوياته أو أن يعلم الجواري في إعداد الكتب للنساخين في دار الحكمة في القرن الثالث على ما قرأنا في رسالة الغفران لأبي العلاء.

وفي عهد المستنصر (٣٦٦) أنشئت في بغداد مكتبة عامة بلغ عدد فهارسها ٤٤ مجلدا يقع المجلد في عشرين صفحة. وتجمعت في قرطبة ونظيراتها من مدائن الأندلس كل كتب المشرق العربي ابتداء من عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠) لنجد في قرطبة (دكانا) فيه مائة وسبعون جارية ينقلن المؤلفات لطلاب الكتب لينسخوا أو يترجموا إلى اللغة اللاتينية لتذاع على أيدي ناسخيها في بلدان أوروبة وأديرتها وجامعاتها.

وتواصلت القسطنطينية في العلم الإغريقي مع قرطبة. أما صلاتها بالمشرق العربي فكانت صدعا بأوامر العرب المنتصرين في المعارك لإرسال كتب اليونان الأقدمين لترجمتها من عهد الرشيد وأبنائه.

وشاكر العلماء من كل ملة في الترجمة، ليستمر تيار الثقافة في التدفق. وفي كلمة شاملة قال المستشرق نيكلسون عن العلم ومعاهده وطلابه وترحالهم في القارات الثلاثة المعروفة: (كان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة تجارتها، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدا الناس جميعا، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا، طلابا للعلم، أو على الأقل أنصارا للأدب.

وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء موارد العلم والعرفان، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المثقفين ثم يصنفون، بفضل ما بذلوه من جهد، هذه المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف، والتي لها أكبر الفضل في إيصال العلوم المدنية إلينا بصورة لم تكن متوقعة).

هذه الحضارة التي لا نجد لها نظائر من قبل كما يقول نيكلسون، كانت توطئة موفقة للنقلة التي تداخلت في عصر النهضة الأوربية بمنهج قائم على التناصح في العلم واجتهاد الرأي للانتقال من المعلوم إلى المجهول في كل أبواب المعرفة واختبارات المواد دون أن تقتصر على ما يسمى بالاجتهاد الشرعي (بذل أقصى الوسع لتحصيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية).

لقد نزل الله الكتاب تبيانا لكل شئ. فكان كذلك تبيانا لكل العلوم وعلى أيدي المسلمين وغير المسلمين، وسنضرب على هذه الحقيقة عشرين مثالا من عظماء العلماء في التاريخ الوسيط يتمثل فيهم عمل الآلاف أو مئات الآلاف.

obeikandl.com

أئمة الدين والفقه والمتكلمون

فيما يلي كلمات قليلة في المنهج عن خمسة من أئمة الدين والفقه والفلسفة. تخيرناهم من العلماء في فروع العلوم الاجتماعية المختلفة لننتقل من بعدهم إلى آخرين في فنون العلوم التطبيقية. نبدأ بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الإمامية. يليه أبو حنيفة "الإمام الأعظم" في الفقه لأهل السنة. والثالث زعيم فرقة من فرق المتكلمين (المعتزلة) هو الجاحظ. والرابع وهو الغزالي أصولي فقيه متصوف. أما الخامس فعالم في الفلك وفيلسوف من المغرب بالأندلس، ما يزال الأدب العالمي يقلده.

<u>وسنلحق بالكلام عنهم أمثالا في علم المناظرة لبيان اتباع أصول الفقه في الاستدلال:</u>

١- الإمام جعفر الصادق (١٤٨): الإمام جعفر الصادق يتبع الاستقراء لاستنباط وجود الخالق من مخلوقاته. وسنقرأ بعد ما ينقله عنه إمام الكيمائيين جابر بن حيان. كما يبيح الشك مرحلة في طريق المعرفة ويصاحب مجادلة في طريق الاستقراء الملئ بآيات الله المالكة للإحساس الرافعة قلوب البشر من عمق الغفلة إلى مستوى العلم. ويحض على عدم إنكار ما لم يحط المفكر به علما. ويستعمل دليل الشاهد على الغائب وينهى عن اتباع قول بغير دليل أو مجاراة الفلاسفة في الأفكار الزائفة.

يعلن لزنديق يسأله عن رؤية الله: "رأته القلوب بنور الإيمان. وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف. ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها واقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته" وهكذا يجعل الاستقراء دليلا على ما ترسله السماء من رسالاتها لأن التعريف به سبحانه ثابت من آياته العظمى في هذه الدنيا.

يقول ليثبت التوحيد "إن الشكاك قصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فهم بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن الفرش ووضع كل شئ من ذلك موضعه.. فجعلوا يترددون فيها يمينا وشمالا محجوبة أبصارهم عنها. والإنسان كالمالك لهذا البيت... ففي هذا دلالة على أن العالم مخلوق بتدبير وحكمة ونظام وملاءمة وأن الخالق له واحد".

ويقول لمجادل آخر "أخبرني هل رقيت إلى الجهات كلها وبلغت منتهاها؟ هل رقيت إلى السماء التي ترى، أو انحدرت إلى الأرض السفلى، فجلت في أقطارها؟ فما يدرك لعل الذي أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك...".

ويقول: "أما إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة"(٢٥).

فهذه منازل ثلاثة وقاعدتان: منازل الإنكار فالشك فبلوغ المعرفة. وقاعدتا عدم إنكار ما لم يحط المرء بعلمه مع استعمال دليل الشاهد على الغائب.

والإمام ينزل طاعة الناس العمياء للتحليل والتحريم اللذين يفرضهما الأحبار أسوأ منزلة فيفسر قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بقوله (والله ما دعوهم إلى عبادة ولو دعوهم ما أجابوهم.ولكن أحلوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا "فعبدوهم" من حيث لا يشعرون).

٢- الإمام أبو حنيفة (١٥٠): يتبع الإمام الأعظم أبو حنيفة "الدليل القرآني" القائم على استقراء الواقع والاستنباط فيه بما ينتج القطع بأن للعالم صانعا صنعه وتعهده بقدره،فيضرب أمثالا مجتمعة في صورة سفينة وسفانها، ويستعمل دليل الشاهد على الغائب فيجيب مجادليه في وجود الله بسؤال يوجهه إليهم: ما تقولون في رجل يقول لكم إن سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأمتعة والأثقال قد احتملتها في لجة البحر أمواج مختلفة. وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا: لا.

قال: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجري من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحائط ومحدث لها؟

---

(٢٥) الإمام جعفر الصادق للمؤلف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص٢٨٤- ٢٨٥.

٣- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر البصري الشهير بالجاحظ (٢٥٥هـ = ٨٦٨م) أعلم الناس بمعارف عصره وأديب العربية الكبير وزعيم فرقة من فرق المعتزلة تسمى (الجاحظية) والمعتزلة فرقة متميزة بين علماء الكلام[٢٦] (المتكلمين) وهو من كبراء المفكرين والأدباء العالميين والمعبرين الذين يستعملون الألفاظ كأنها أرقام الحساب. وهو – بعد – من (التجريبيين) في العلوم كما تتحدث عنه مؤلفاته ومن أهمها كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان في سبعة أجزاء. ومقدمة هذا الكتاب (خطبته) تهدي إلى منهاجه فهو يصفه بقوله "... وهذا كتاب قد جمع بين معرفة السماع (وعلم التجربة)، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة" وهو دقيق في استقرائه وتسجيل ما يشاهده من خصائص وأوصاف مع الدقة في اختيار الكلمة المطابقة للمعنى بحيث يمتنع الغموض أو الاختلاط فهو "يقسم الكائنات إلى أقسام.. والحيوانات إلى أقسام. شئ يمشي وشئ يسبح وشئ ينساح والذي يمشي على أربعة أقسام ناس وبهائم وسباع وحشرات.." ثم يشرح أحوال كل قسم مثل أن يقول في حيوان الماء "ليس كل عائم سمكة وإن كان مناسبا للسمك في كل معانيه. ألا ترى على الماء كلب الماء وعنز الماء وخنزير الماء.، وفيه السرق والسلحفاة، وفيه الضفدع وفيه السرطان والتمساح والدلفين".

ويقسم الحيوان إلى فصيح وأعجم. فالفصيح هو الإنسان والأعجم هو الحيوان، ويشرح أحوال الحيوان مثل أن يقول: "ومن الحيوان الأعجم ما يرغو ويثغو وينهق ويصهل ويشمخ ويخور ويبغم ويعوي وينبح ويزقو. ويصفر ويهدر ويوصوص ويوقوق وينعب ويزأر ويكش ويبح".

ومن علم التجربة يجمع الحيوانات ويضعها في أوان زجاجية ليراقب سلوكها إذ تجتمع أو يبقر بطونها ليعرف ما بها. ومنه أن يدرس أثر الخمر عليها وعلى الحيوان. وأن يخالط أصحاب المهن ليتحدث عن تجاربهم يقول: "سمعت حديثا من شيوخ ملاحي الموصل" أو يقول: "خبرني من يصيد العصافير" ويقول "شكا إلي حواء مرة فقال: أفقدني هذا الأسود ومنعني الكسب. وذلك أن امرأتي جهلت فرمت به في جونة فيها أفاعي ثلاث أو أربع فابلتعهن وأراني حية منكرة".

ومن علمه ما يستقرئه من شهود آثار الأوائل كأن يقول: "كانت معروفة عند الأعراب مشهورة في الأخبار منوها بها في الأشعار".

---

(٢٦) يعرف عضد الدين الأيجي (٧٥٦) علم الكلام بأنه: "علم يقتدر منه على إثبات العقائد بإيراد الحجج ودفع الشبه" وقد خدم علماء الكلام فلسفة الإسلام بما لا يقل عن خدمة العلماء السلفيين لها.

كل ذلك وهو المشغول بكبار الأفكار أو بمعارك المعتزلة مع المحدثين والمفكرين السلفيين وبعمله في مناصرة الخلفاء الذين كادوا لهؤلاء كما صنع في محنة خلق القرآن.

ومع وقوفه بجوار الخليفة المأمون ضد أهل السنة وبخاصة الإمام أحمد بن حنبل – تلميذ الشافعي – فقد خص الشافعي بثناء يندر أن يرد له نظير على لسانه، وهو كبير النقدة في عصره، وقد عمر أكثر من ثلاثين عاما في حياة الشافعي قال: "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من الفتى المطلبي كأن لسانه ينظم الدر" وإنما ملك عليه لبه "منهج أصول الفقه" كما سيملك الباب سائر المتكلمين.

ومن المنهجية وحرية الفكر كان إبراهيم بن سيار زعيم فرقة النظامية في المعتزلة[٢٧] وأستاذ الجاحظ يقول: "الشاك أقرب إليك من الجاحد. ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك. ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حالة شك". فيبني التلميذ على أصل أستاذه أصلا آخر. فيقول: "تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه. والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك".

ثم يذهب الجاحظ إلى ما هو أبعد، فيقول ما يرويه الغزالي عنه وينقله أحمد أمين في ضحى الإسلام: "ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية، إن كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم. وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور. وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط. لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها. وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة" وقد ناقش الغزالي هذا الرأي في (المستصفى) ثم عاد لمناقشته في (فيصل التفرقة).

---

(٢٧) يقول الجاحظ في كتاب الحيوان: (لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم. ولولا مكانة المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل لولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة) كان النظام (٢٢١هـ – ٨٣٥م) شيخ الجاحظ وهو من بين جميع المعتزلة ينكر حجية الإجماع فيما ليس معلوما من الدين بالضرورة.

٤- أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ = ١١١١م) والغزالي[٢٨] فقيه شافعي رفيع المقام في الفقه وفي أصول الفقه وفي علم التصوف وفي الفلسفة، تلقى العلم على إمام الحرمين (الجويني) وعلمه في المدرسة النظامية ببغداد. وكانت ترجمات أرسطو وأفلاطون قد ذاع أمرها في الوسط العلمي من كتابات الفارابي وابن سينا فانشغل بدراسة الفلسفة اليونانية وألف فيها كتاب (مقاصد الفلاسفة) ولما استوثق من فسادها ألف كتابه (تهافت الفلاسفة).. ثم ساح في الأرض عشر سنين يبحث عن "الحقيقة" ليصل بالخلوة ومجاهدة النفس إلى عالم اليقين. أو كما قال "نظرت إلى نفسي فرأيت كثرة حجبها فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة" فمشى على قدميه من بغداد إلى دمشق حيث استكن في موضع بمنارة الجامع الأموي ولبس الثياب الخشنة وقلل من طعامه ومشربه واعتزل الناس حتى لان له الصعب، وقذف الله اليقين في قلبه. وفي تلك الفترة ألف كتاب (إحياء علوم الدين) ثم عاد إلى التدريس والتأليف فكتب في سنة ٥٠٣ كتاب "المستصفى" في أصول الفقه. وهو يعتبر من أغزر المؤلفين إنتاجا في علوم الدين وربما دلت بعض مبادئه على جماع منهاجه في النظر.

١- يقول: "اطرح المذاهب. فليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه فاطلب الحق بطريق النظر لا بالتقليد.

٢- ويفصل أغاليط النظار فيقول في كتاب محك النظر: "وكثرة ألغاليط النظار من التصديق بالمألوفات والمسموعات في الصبا من الأب والأستاذ وأهل البلد المشهورين بالفضل".

وظاهر في هذه الفقرة أثر آيات الكتاب العزيز وخطبة الشافعي التي قدم بها رسالته[٢٩].

---

(٢٨) يقول عنه المرحوم الشيخ محمد الخضري في كتاب تاريخ التشريع الإسلامي: "تفقه بإمام الحرمين (أي العالي الجويني) حتى بزغ في المذهب والخلاف والجدل والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة" ويصفه إمام الحرمين بقوله: "بحر مغدق" وبعد وفاة إمام الحرمين ذهب إلى بغداد وتولى تدريس النظامية (المدرسة النظامية) صنف فيها كتب البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة في المذهب وفي أصول الفقه (المستصفى) والمنخول وبداية النهاية والمآخذ في الخلافيات وشفاء العليل في مسائل التعليل وغير ذلك في علوم شتى. توفي بطوس سنة ٥٠٥ ولم يجئ بعد الغزلي من يماثله". ويلاحظ أن المؤلف لم يذكر من كتب الغزلي إلا ما يتعلق بالفقه وسكت عن كتب له أكثر اشتهارا لتعلقها بالحكمة والفلسفة أو التصوف، لأن الكتاب خاص بتاريخ التشريع وسيصنع الصنيع ذاته في صدد ابن رشد كما سنرى بعد.

(٢٩) انظر ص٤٦ وص٩٣ من هذا الكتاب.

٣- ويقول في محك النظر: "ولو عرضت الوهم على نفس الوهم لأنكره فإنه يطلب له سمكا ومقدارا ولونا فإذا لم يجده أباه". فالوهم كالصنم أو تجسيد لعدم.

٤- ويقول عن البحث الشخصي وحرية النظر ما ورد في كتابه: (ميزان العمل): "ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك لتتندب في الطلب، فناهيك به نفعا إذ الشكوك هي الموصلة للحق. فمن لم يشك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر. ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال".

٥- ويضيف تحفظا على طريقته من ترك التقليد ثم الشك ثم النظر فيقول: "إن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع الطالب، ولا كاشفا لجميع المعضلات" ويقول: "وعندما ترجع الضرورات العقلية مقبولة على أمن ويقين لا يكون ذلك إلا بنور يقذفه الله تعالى في الصدر، وهذا النور هو مفتاح أكثر المعارف".

ولئن كان التصوف كما مارسه الغزالي، قدرة على انتزاع النفس من مألوفها وتطهيرها من أدران البيئة وأوهامها، فإن الغزالي هو القائل: "العقل كالأساس والشرع كالبناء".

وبهذا اجتمع في فكر الغزالي وعمله: العقل والشرع، مع طهارة النفس من الوهم، وتنزه القلب عن أدران الحياة الدنيا فصار قمة في "المنهج" ولما رجع من عزلته يكتب في أصول الفقه، كان بذاته شهادة صدق ببلوغ المنهج العلمي الإسلامي أوجه في شخص عالم عامل بما يعلم، أمكنته أمانة العلم ونزاهة العقل، وصفاء النفس، من أن يتلقى النور الذي يقذف الله به اليقين في القلوب. وفي إبان اعتزاله كتب كتبه التي ما تزال تحتل مقام الصدارة بين المجددين المصلحين والمتجددين من الناشئة (كتاب إحياء علوم الدين).

وقد تحدث المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي عن مكانة هذا الكتاب لدى المسلمين إذ تحدث عن الإمام محمد عبده، فقال: "ودعته ليلة سفري للسودان (عندما أوصى الإمام بتعيينه

قاضيا للسودان في فاتحة القرن الميلادي الحالي). فسألني هل معك رفقاء السفر؟ قلت نعم بعض كتب. فقال أو معك كتاب الإحياء؟ قلت نعم. قال الحمد لله"[٣٠].

* * *

وتحدث الشيخ المراغي عن المنهج العلمي عامة وعند الغزالي خاصة وهو يقدم كتاب الدكتور محمد حسين هيكل (حياة محمد) فقال:

(انظر إلى كتب "الكلام" ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله. فيقول آخرون لا إن أول واجب هو الشك. ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان. وهو وإن كان نوعا من أنواع القياس إلا أنه يجب أن يكون مقدمات قطعية حسية أو منتهية إلى الحس أو مدركة بالبداهة أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام على ما هو معروف في المنطق. وكل خطأ يتسرب إلى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها. وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء. ثم فكر وقرر ورتب ووازن وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها وحللها. ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما اهتدى إليه من الآراء.

وقد فعل هذا ليتجافى التقليد. وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان. وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة، حكاية تجريد النفس عما ألفته ثم البحث والنظر. فطريق التجريد طريق قديم. وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم. والتجربة والاستقراء التام وليد الملاحظة. فليس هناك جديد عندنا. ولكن هذه الطريقة القيمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق وبعد أن تفشى التقليد وأهدر العلم، أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل، رجعنا فأخذناها عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة.

هذا القانون العلمي في البحث معروف قديما وحديثا. والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير. ولا يتفاوت الناس كثيرا في معرفة القانون ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون).

---

(٣٠) الإمام محمد عبده للمؤلف طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٩ – وقد ولي الشيخ المراغي مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٩ نحو عام ثم وليها عشر سنين أحدث في إبانها إصلاحات كثيرة من ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٤٥ ثم مات فتولاها بعده التلميذ الثاني لمحمد عبده الشيخ مصطفى عبد الرازق نحو عامين من ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٤٧ عام وفاته.

* * *

احتفل المستشرقون والعلماء الأوربيون بالغزالي إذ رأوا له سبحا طويلا في بحار التصوف والتصوف عندهم مشتق من الخفاء والسر mysticism والبحث عن الغيبيات الباطنة. أما التصوف العربي فجوهره الزهد. فالأوروبي غيبي التصوف أما العربي فعملي الطريقة. والمستشرقون أوربيون يميلون إلى غنوص الأفلاطونية المحدثة (القائلة بالعلم الهابط على القديسين وأمثالهم من السماء). وما كان شك الغزالي إلا بداية الطريق الاستقرائي الاستنباطي كما شرحه الشيخ المراغي. ولا كانت فترة اعتزاله إلا فترة تأمل انتهى فيها من تأليف أبقى كتبه على الدهر (إحياء علوم الدين).

واحتفل الفرنجة بالغزالي لمعارك ابن رشد معه بعد موته بكتابه (تهافت التهافت) وابن رشد عندهم هو "الشارح" الذي شرح علوم أرسطو.

ومن كتاب "تهافت التهافت" لابن رشد نقل القديس توماس الأكويني أبوابا من دفاعه ضد الغزالي فيما نسبه إلى الفلاسفة، وكانت كتب الغزالي وابن رشد مترجمة عندهم من قبل أن يولد القديس توماس ويطوف بمعاهد الحضارة العربية وعلومها[٣١] وكان توماس (١٢٧٤) قديسا للدومنيكان وخصومهم كثر في المسيحية.

ولما حرمت الكنيسة تعليم كتب ابن رشد أو فلسفة أرسطو وقررت مجامعها حرق كتب ابن رشد، كان ذلك إيذانا لأحرار الفكر بأن يقتنعوا بابن رشد وإعلانا عن الغزالي عند من عارضوا ابن رشد. كذلك كانت ترجمات كتب الغزالي وابن رشد في طليعة "المطبوعات" في سنة ١٥٠٦ بعد اختراع المطبعة ومنها ترجمة كتب الغزالي لجند يزالفس فلقيت النسخة المطبوعة رواجا عظيما على أيدي فريقي مؤيديه ومعارضيه. وبرزت بعض مقولاته منقولة نقلا كأنه حرفي في مؤلفات فلاسفة المنهج العلمي في القرن التالي في مؤلفات ديكارت في فرنسا (١٦٥٠) وبيكون في انجلترا (١٦٢٦).

---

(٣١) التحق القديس توماس ببلاط ملك صقلية وكان ملوكها مشغولين بترجمة الكتب العربية، ومنهم من يتكلم العربية وكان البلاط يجيد اللغة العربية كما كان توماس الكبير عم القديس سفيرا إلى بلاط الملك الكامل بمصر.

ولئن جاز إجمال التعبير عن مبادئ ديكارت (١٦٥٠) في كلمته المأثورة "إنما تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما في شئ ما بحكم العادة أو التقليد، وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام التي تستطيع أن تخمد النور الفطري وتنقص من قدرتنا على التعقل"[٣٢] إن هذه مبادئ تمت إلى الغزالي بأكثر من سبب حيث تتحصل مبادئه كما أسلفنا في البدء بالشك ونبذ التقليد والأوهام والبصر بالأشياء والاستنباط منها وانتظار اليقين الذي يفتح الله به على المجتهد.

بل يلاحظ الدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه (المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت) التشابه في (خصوصيات) في العبارات، وربما قلنا التشابه الحرفي بين الكلمات، في غير موضع مثل أن يقول الغزالي (في مشكاة الأنوار).

"وصورة آدم مكتوبة بخط الله... ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه" ويقول في المنقذ من الضلال "ولم أزل في عنفوان شبابي منذ أن راهقت قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أنافت السن على الخمسين، أقتحم لجنة هذا "البحر العميق"... أمحص عقيدة كل فرقة" ويستعمل ديكارت نفس تعبير "البحر العميق" في خطاب منه إلى بلزاك (١٦١٣).

بل يستعمل عبارة "علامة الصانع المطبوعة على صنعته" وهي ما يعبر عنه الآن (بالعلامة المسجلة) فنراها تقابل تماما كلمات الغزالي "إن صورة آدم مكتوبة بخط الله" كما يستعمل عبارة "إني أتصور هذه المشابهة المتضمنة لفكرة الله بعين الملكة التي أتصور بها نفسي ومن ثمة أعرف أنه هو الله". وهي تقابل كلمات الغزالي ونصها "ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه".

وينقل الدكتور محمود حمدي زقزوق مشابه أخرى وينبه القارئ على إشارة من ديكارت على هامش كتاب الغزالي، تفيد اعتزام الاستفادة بما في الكتاب، كما يعود الدكتور زقزوق إلى ذكر ذلك في كتابه (تمهيد للفلسفة) حيث يذكر مؤلفه الأول ويضيف "وانتهينا إلى اتفاقهما (الغزالي وديكارت) الذي يكاد أن يكون تاما في خطوات المنهج وكذلك في النتائج التي ترتبت على استخدام هذا المنهج".

---

(٣٢) علم الدكتور طه حسين فلسفة الشك لديكارت في جامعة القاهرة وكتب على أساسها كتابات، عدل بعدها عن مقولات فيها.

وفي تقدير شك الغزالي نلاحظ أن الاجتهاد لا يجوز إلا عند عدم وجود نص أو معنى ينتج الحكم، وأن شروط الشافعي للقياس تبدأ وتستمر في حدود عدم الالتزام بغير ما يظهره البحث والتثبت مع الاحتياط وتكرار الامتحان. كما نلاحظ أن الجاحظ من المتكلمين أوجب تعلم الشك تعلما وأن النظام يقول: "بأنه لم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينها حالة شك" ومن قبل هذين بنحو قرن لم يضق الإمام جعفر (١٤٨) بالشك بل رجا للشاك أن يخرج من منزلة الشك إلى المعرفة.

والقول بأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، قول المجتهدين. ويترتب عليه عدم إقفال باب الاجتهاد،وأن الاجتهاد خاضع لاجتهاد قد يغيره، أما علم الإحاطة الذي يظهر معه اليقين فهو كالاستقراء الكامل الذي يظهر من سنن الخالق، وتتحقق به الحتمية العلمية كالشمس تجري لمستقر لها، والليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر بحسبان، وغير ذلك من قوانين الكون.

٥- ابن طفيل ٥٨٦هـ - ١١٨٥م: نحن الآن نعبر بالمنهج الإسلامي إلى الأندلس حيث يتعلم الطلاب الأوربيون، ومنهم من أصبح بابا المسيحية في روما من سنة ٩٩٩ إلى سنة ١٠٠٣ علوم المسلمين وحيث ابن طفيل يتوسط عقد ثلاثة من فلاسفة الإسلام قدمه ابن باجه (٥٢٣هـ = ١١٣٨م) إلى الخليفة ليكون طبيبا له ولما طلب إليه الخليفة أن يصف له فلسفة ابن رشد، قدم ابن طفيل ابن رشد إلى الخليفة ليأخذ الشئ من مصادره فصار طبيبه بعد موت ابن طفيل.

ولابن طفيل مؤلفات في علم النفس، وفي الفلك، خالف فيها السابقين ومنهم بطليموس، كما نقد فلسفة ابن سينا والفارابي، وسينقدها مثله ابن رشد.

وابن طفيل يستعمل المنهج الإسلامي في علم الكلام استعمالا سيخلده التاريخ في كل الأمم بتكرار محاكاة الكتاب له حتى اليوم، ويستخدم الاستقراء والاستنباط من حياة (حي بن يقظان) الذي سمى باسمه قصته فأشرك في تجاربه الأشياء والأكوان وفطرة الإنسان وعقله لإثبات الألوهية وصفاتها وحاجة البشر للرسالات وإدراكهم لوجوب الثواب والعقاب وخضوعهم للسنن الكونية الطبيعية والاجتماعية ولإثبات أن الأرض كرة وأن العالم كله في شكل كروي. كل أولئك بدلائل واقعية لا تحوج إلى الأدلة الجدلية. وإنما تصل إلى ضرورة (الإسلام) بتسليم

الإنسان نفسه إلى الله، وقبول التعاليم من رسله ليتطور وتعظم ذاته وييسر عليه التعامل مع الكون الذي برأه الله له والجماعة التي خلقها معه.

يبدأ ابن طفيل بداية الغزالي باطراح كل المبادئ لينتهي نهاية عقلانية تماما من طريق تجريبي طويل طول الحياة والقصة في كلمات:

أن حي بن يقظان ولدفي جزيرة لم يعرف فيها بشرا فتخذ من أغصان الشجر عصيا يستخدمها سلاحا أو وسائل فنبل في عين نفسه. وستر عورته... ولما ماتت ظبية كانت تسقيه لبانها راح يقلب البصر والبصيرة في الأحياء والأموات حتى استبان له من سنن الوجود أن كل شخص من أشخاص الحيوان هو (واحد) مبدؤه واحد.

ثم "تعلم أن كل حادث لا بد له من محدث.. فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الإجمال حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل فجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جميع المحسوسات.. فنظر إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب. فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى. وما مال عن سمت رأسه يقطع دائرة أصغر. واطرد له ذلك في جميع المخلوقات وفي جميع الأوقات فتبين له أن الفلك على شكل كرة..".

"فلما تبين له أن كمال ذاته ولذته إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام... قطع بذلك أنه هو الحيوان المعتدل الروح. خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم لم يعد له شئ من الحيوان... وقد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هي بدوام المشاهدة لهذا الموجود الدائم الوجود...".

وفي سنة ١٩٦٤ ظهر في ألمانيا كتاب (إجابة الأديان) عن أسئلة وضعها جرهارد شيسني Gerhard Shyesny ورد عليها رجال الأديان. يهمنا منها سؤال كيف يستطيع الإنسان أن يجد العقيدة الصحيحة أو أن يجد العقيدة المناسبة له إذا لم تكن لديه معلومات عن كل إمكانيات التفسير الديني للعالم؟ أما الجواب فوضعه مستشرق نمساوي أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) [٣٣]

---

(٣٣) كان يهوديا اسمه Leopold Weiss ولد بالنمسا اعتنق الإسلام سنة ١٩٢٦ وطوف بالبلاد الإسلامية وألف كتاب (الإسلام على مفترق الطرق) بالألمانية ترجمه الدكتور محمد فروخ سنة ١٩٤٦ إلى العربية وكتاب "الطريق إلى مكة" سنة ١٩٥٥ باللغة الألمانية وكتاب "حول أصول الفقه الإسلامي" باللغة الإنجليزية وقام بإعداد تفسير للقرآن الكريم.

وفيه دراسة لاستخدام قصة حي بن يقظان في علم الكلام قال (إن كلمة إسلام بمعناها الحرفي – وهو التسليم لله – تجيب إلى حدج ما على هذين السؤالين وطالما ندرك أن الله حقيقة واقعة وأننا نسلم له في عقيدتنا وسلوكنا فإننا نحقق معنى حياتنا – وأحيانا يستطيع الأفراد من أصحاب المواهب الخارقة أن يصلوا إلى هذا التحقق النفسي والعقلي بواسطة حدس شخصي ولكن الغالبية العظمى من الناس لا تستطيع هنا أن تستغنى عن مساعدة خارجية، ومثل هذه المساعدة يقدمها لهم الوحي الإلهي الذي يمنح للأنبياء. وتصور هذه المعرفة في وضوح عميق، تلك القصة الفلسفية الرومانسية التي ألفها في القرن الثاني عشر الفيلسوف العربي ابن طفيل بعنوان (حي بن يقظان).. يأتي القاص إلى جزيرة تبدو خالية من السكان باحثا عن كمال عقلي، ويقابل في هذه الجزيرة رجلا عاش هناك منذ الطفولة المبكرة وحيدا في عزلة عن كل اختلاط بأناس آخرين. هذا الرجل هو "حي بن يقظان" الذي تطور بالتدريج عن طريق صلته العميقة بالطبيعة وبمساعدة نفسه عن طريق قواه العقلية الفطرية فقط. تلك القوى التي لم يصبها فساد. تطور إلى أعظم مستوى للفكر. وحصل بهذه الطريقة على بصيرة في الأمور الإلهية. وقد اجتاز كل مراحل العلم الحدسي ووصل إلى نقطة يوجد فيها الكون أمامه مفهوما في وضوح. والآن يجد أن فلسفته الخاصة التي وصل إليها بدون نبي أو وحي تتطابق في كل الأمور الجوهرية مع الإسلام الذي يعتنقه صديقه الجديد وهو القاص. وبعد عودته فيما بعد إلى منطقة مأهولة بالسكان يصل "حي بن يقظان" إلى الاقتناع بأن الطريق الذي سلكه في حياته كان أمرا شاذا أو استثناء وأن الهداية التي يقدمها القرآن ويقدمها "النبي محمد" هي الطريق الوحيد الأنسب للغالبية العظمى من الناس. وذلك لأن عقيدتهم لا يمكن تحريكها في النفس والحفاظ عليها إلا عن طريق أقوال معينة وتوجيهات للحياة ومطالب أخلاقية وتشبيهات للثواب والعقاب. ولكن بقطع النظر عن الطريق الذي يسلكه فإن الأمر الأهم في النهاية هو استمرار نفس الشئ (إسلام الإنسان نفسه لله)..

علم المناظرة

أصبحت المناظرات علما له قواعده وآدابه وكتبه، منذ كان البرهان دليلا على العقيدة وسبيلا لإثبات الحقيقة في كل أمر. وتعاظم شأن هذا العلم بإقبال المتناظرين الكفاة واحترام الناس لهم والإفادة من علمهم، وكانت المناظرات تدور بين المتكلمين وأهل السنة وبين أهل الظاهر وغيرهم. والشافعية والحنفية أفراس رهان في مجالس النظر بمثل ما كان الأدباء والشعراء. ثم أصبحوا، وأمثالهم، يعمرون مجالس الأمراء والكبراء وعن هذه المجالس آل إلينا تراث فقهي وأدبي وعلمي عظيم.

لقد بدأ المأمون من أول القرن الثالث بعقد المجالس في حضرته وأعقبه الواثق بن المعتصم. ثم أمسى ذلك تقليدا لدى الكبراء،فرأينا الخليفة المسترشد يجلس في مناظرات الأشاعرة سنة ٥١٦ بعد موت الغزالي بإحدى عشرة سنة،وستستمر مجالس المناظرة تقليدا مجيدا في المجتمع الإسلامي وإن خفتت أصوات المتناظرين في بعض العصور.

والمناظرة مدارسة وطلب العلم فريضة في المجتمع الإسلامي فهو مجتمع علمي إذا التزم قانونه.

والاقتدار في الجدل من تراث الشافعي، وقد سلم الجميع للإمام باقتداره. فيه يقول الإمام أحمد بن حنبل: "كانت أقضيتنا في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي.. وكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسول الله".

وكان إسحق بن راهويه – إمام خراسان – يطلق على الشافعي (خطيب العلماء) قال لداود إمام أهل الظاهر "ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحا حسن الأدب فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم أهل زمانه بالقرآن وأنه قد أوتي فيه فهما فلو كنت عرفته للزمته".

قال داود (٢٧٠): "ورأيته يتأسف على ما فاته منه" وأصبح من المألوف للمتفقهة أني شهدوا مجالس المناظرات بين الحنفية المشهورين (بأصحاب الرأي) وبين الشافعية وهم علماء الأصول.

لكن الزمان تغير،فساء فهم الناس للجدل إذ تغير شأن الجدل فصار حرفة تراود نفس بعض أصحابها شهوة الظهور. فكان الغزالي يقول: "إنه ما دفع العلماء إلى الجدل إلا اتباع شهوة الأمراء وإن كانوا يلبسون على أنفسهم ويخدعونها بأن غرضهم عرض ما يوافق الشرع وتمهيد أصول الفتاوى وتقريب علل الأحكام".

وكانوا يتفننون في الجدال: كالذي يستدل بعام فإذا استدل خصمه بالعام قال له: دلالة العام ظنية ولا يعمل بها حتى نبحث عن مخصص. لأن كل عام يدخله التخصيص. وكالذي يستدل بالخاص فإذا استدل خصمه بخاص رد عليه بأنه يستدل بقضية عين لا عموم لها.وكالذي يستدل بحديث للرسول، فإذا استدل خصمه بحديث قال له: يحتمل أنه خصوصية وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال. ولقد أسلفنا مثلا عظيما من مناظرة الشافعي مع محمد بن الحسن في أواخر القرن الثاني للهجرة وفيما يلي أمثال تدل على استمرار المناظرات في مستوى عظيم يستفيد به العلماء والمتعلمون، وإن ضاق صدر الغزالي بالمناظرات في ذلك العصر.

فالشافعية والمالكية والحنابلة يذهبون إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر والحنفية يرون أن يقتل به، ولكل رأي سنده من المنقول والمعقول. وقد أورد المناظرة أبو بكر بن العربي في تفسيره (أحكام القرآن).

قال: (ورد علينا بالمسجد الأقصى (بيت المقدس) سنة سبع وثمانين وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزني... وشهد علماء البلد فسئل عن قتل المسلم بالكافر.

فقال: يقتل به قصاصا فطولب بالدليل فقال الدليل قوله تعالى: (يا أيها لاذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) وهذا عام في كل قتيل.

فانتدب معه في الكلام فقيه الشافعية عطاء المقدسي وقال ما استدل به الإمام لا حجة له من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى قال: (كتب عليكم القصاص) فشرط المساواة في المجازاة، ولا مساواة بين المسلم والكافر فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته.

الثاني: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها وجعل بيانها عند تمامها: فقال (كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) فإذا نقص العبد عن الحر بالرق.. فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر.

الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: (فمن عفي له من أخيه شئ) ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر. فدل على عدم دخوله في هذا القول.

فقال الزورني: دليلي صحيح وما اعترضت به لا يلزمني منه شئ. أما قولك إن الله تعالى شرط المساواة في المجازاة فكذلك أقول. وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم في القصاص معدومة، فغير صحيح، فهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد. وإن الذمي محقون الدم والمسلم محقون الدم. وكلاهما في دار الإسلام. والذي يحقق ذلك، أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي وهذا يدل على أنمال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه.

وأما قولك إن الله ربط آخر الآية بأولها فغير مسلم فإن أول الآية عام وآخرها خاص وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها بل يجري كل حكمه من عموم وخصوص.

وأما قولك إن الحر لا يقتل بالعبد فلا أسلمه بل يقتل به قصاصا فتعلقت بدعوى لا تصح لك.

وأما قولك (فمن عفي له من أخيه) يعني المسلم فكذلك أقول ولكن هذا خصوص في العفو فلا يمنع من عموم القصاص.

ويرجح رأي الجمهور في عدم مساواة المسلم بالكافر، أن الله يجعل الكافر مجعل الدابة في سورة الأنفال ٥٥: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) والله يقول في سورة التوبة ٢٨: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) فالمسلم والكافر لا يستويان. والمسألة خلافية كما ترى.

ومن قبل ذلك رأى أبو سعيد البردعي (٣١٧) وهو حنفي من المعتزلة مناظرا من الحنفية ضعف بين يدي داود بن علي، فانتصر أبو سعيد للحنفي فسأل داود عن بيع أمهات الأولاد فقال: يجوز لأننا أجمعنا على جواز بيعهن قبل علوق الجنين فلا يزول هذا الإجماع إلا بإجماع

مثله. قال أبو سعيد أجمعنا بعد العلوق وقبل الوضع أنه لا يجوز بيعها فيجب أن نتمسك بهذا الإجماع ولا نزول عنه إلا بإجماع مثله.

ومن قبلهم كان المأمون (٢١٨) نظارا جدلا وقد مر بنا تعقيبه على حكم قاضيه بشر بن الوليد ولقد عين (عليا الرضي إمام الشيعة) وليا لعهده ومع ذلك جلس يناظره في حق جده علي بن أبي طالب في الخلافة دون غيره.

قال المأمون: بم تدعون هذا الأمر؟

قال الإمام: بقرابة علي بن أبي طالب من النبي وبقرابة فاطمة رضي الله عنها.

قال المأمون: إن لم يكن ها هنا إلا القرابة ففي خلف رسول الله من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي ومن هو في القرابة مثله (يقصد العباس عم النبي وابنه عبد الله جدي المأمون).

واستمر يقول: وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق للحسن وليس لعلي في هذا حق. وهما حيان. وإذا كان الأمر كذلك فقد ابتزهما وهما حيان واستولى على ما يجب له.

* * *

ومن بعد المأمون خرج أبو الحسن الأشعري على المعتزلة فجلس يوما يناظر عميهم أبا علي الجبائي (٣٠٣هـ = ٩١٥م) في مبدأ المعتزلة أن العدل واجب على الله تعالى. فسأله عن ثلاثة إخوة: الأكبر مؤمن زاهد. والأوسط كافر فاسق والأصغر صغير لم يبلغ الحلم.

قال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات. وأما الكافر ففي الدركات. لأن ثواب المطيع وعقاب العاصي واجبان على الله. وأما الصغير فلا يثاب ولا يعاقب فهو من أهل السلامة.

قال الأشعري: إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة؟

قال الجبائي: يقول الله تعالى: الدرجات ثمرة الطاعات.

قال الأشعري: فإن قال الصغير: ليس مني النقص والتقصير. فإنك إن أبقيتني إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة.

قال الجبائي: يقول الباري تعالى: قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب المقيم في الجحيم. فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا.

قال الأشعري: إن قال العاصي المقيم في العذاب الأليم مناديا من بين دركات النار وأطباق الجحيم: يا إله العالمين ويا أرحم الراحمين. لم راعيت مصلحة أخي دوني، وأنت تعلم أن الأصلح لي أن أموت صغيرا ولا أصير في السعير أسيرا فبماذا يقول الرب؟

فبهت الجبائي في الحال وانقطع الجدال.

ولم يشتهر علماء المالكية والحنابلة بالجدل. وإن كان أبو الوليد الباجي (٤٩٤) مجادلا في الذروة. يقول عنه ابن حزم: "ولو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم". وابن حزم باقعة عصره.طالت المناظرة بينه وبين الباجي ثلاثة أيام. قال الباجي في نهايتها:"اعذرني فقد طلبت العلم على مصابيح الشوارع" وأجاب ابن حزم: "أنا أبلغ منك عذرا فقد طلبت العلم على قناديل من الذهب والفضة" يقصد أن الثراء لا يساعد على تلقي العلم وبقى الحنابلة يزورون عن الجدل حتى جاء منهم ابن تيمية الذي لم يثبت لجداله أحد. وكان معارضوه يلوذون منه بالسلطان!

اخترنا هذه المناظرات لتكون – مع ما أسلفنا من مناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن – وقائع حية تتجلى فيها خصائص علم المناظرة مطبقة في الواقع على ألسنة متناظرين متعددين في نواح شتى من الفقه والكلام والسياسة وغيرها ويخلص لنا مما سلف:

١- أن النزاهة العلمية فريضة دينية سواء في تحصيل العلم أو في تعليمه أو المناظرة فيه.

٢- وجوب استقراء المشاهدات والجزئيات والاستنباط المصاحب للاستقراء مع التثبت وبذل الجهد.

٣- نسبية النتائج فيما لم يحط فيه الاستقراء بجميع الجزئيات وقطعية النتائج فيما أحيط فيه بجميع الجزئيات.

٤- البدء في النظر إلى المواضيع بالتجرد من الالتزام برأي خاص.

٥- اطراح الأوهام والخرافات والدعاوى التي لا ينهض عليها دليل.

٦- دلالة الشاهد على الغائب ومنها دلالة صنع الله على وجوده وقدرته سبحانه.

٧- حتمية سنن الله في أكوانه.

obeikandl.com

الفصل الثاني

التجربة أو الاستقراء والقياس

تزاوج الفكر الفلسفي والمنهج العلمي وما سماه الجاحظ منذ القرن الثاني أو الثالث (علم التجربة) لدى الفلاسفة الفقهاء، والأطباء،وعلماء الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الجغرافيا والجيولوجيا أو النباتات وغيرها.

٦- وتصدر الجميع جابر بن حيان (١٦١هـ = ٧٧٨م) بأعماله في الفلسفة والعلم أو الكيمياء وهو لا مراء "إمام التجريبيين" في جميع العصور. ولذلك تبايع له أوروبة مع كثرة كتبه في الفلسفة على أنه "أول كيمائي في التاريخ".

وجابر تلميذ نبغ في مدرسة الإمام جعفر الصادق. يقسم به في مقدمة كتابه (الأحجار) فيقول "وحق سيدي. لولا أن هذه الكتب باسم سيدي – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد" كما يشير إلى الإمام في كتاب (الحاصل).

<u>وربما هيأ لنا ترتيب بعض مقولاته أن نلم بمنهجه "الأصولي" في التجارب:</u>

١- يقول عن العلم "إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم، ويحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره، بجميع تنقيته وعلله، ثم تجرب ليكون في التجربة كمال العلم" فذلك هو الشرط الأول من شروط الشافعي الابتداء بالعلم ثم تمحيص خصائص الأشياء والاستمرار بالتجربة إلى أن تستقر نتائجها. وبالعلم السابق وحده يمكن تحقيق مبدأ "تصميم التجربة" قبل إجرائها. وهذا مبدأ عند جابر.

٢- ويقول عن صدق الاستقراء "إنا نثبت في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط – دون ما سمعناه أو قيل لنا، أو قرأناه، بعد أن امتحناه وجربناه".

ويقول عن المقارنة بعلم الآخرين أي بالعمل السابق للآخرين أو أقوالهم "وما استخرجناه نحن قايسناه على أقوال هؤلاء القوم" فهو يجري عمليات ثلاثة يستقرئ ولا يثبت ما يستقرئه إلا أن يمتحنه ويجربه ثم يجري قياسه على أقوال الآخرين، فهذا جمع للاستنباط والاستقراء في جميع مراحله.

٣- ويقول عن التثبت وبذل غاية الجهد واستمراره "اتعب أولا تعبا واحدا واعلم. فإنك لا تصل ثم تصل إلى ما تريد" ويقول: (ما افتخر أحد بكثرة العقاقير ولكن بجودة "التدبير" فعليك بالرفق، والتأني، واقتف أثر الطبيعة. فكل شئ طبيعي". ومن اقتفاء أثر الطبيعة عدم افتراض ما لا يوافق واقع التجربة أو منطق الحادثة، مع التعمق في تجريبه.

٤- ويقول عن شرط الدربة العملية وتفضيله على مجرد المعرفة (كم من عالم دارس إذا بلغ إلى العمل وقف، فيكون أضعف أصحاب الصناعة أنفذ في ذلك من العالم الفائق) و(من كان دربا كان عالما، ومن لم يكن دربا لم يكن عالما، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الدرب يحذق وغير الدرب يعطل).

والتاريخ يردد عن جابر مقولة ذائعة: "عملته بيدي وبعقلي وبحثته حتى صح وامتحنته فما كذب" ويقارن الدكتور زكي نجيب محمود أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة بهذه المقولة منهج ديكارت (١٦٥٠م) فيقول: "فإن شئت تلخيصا للمنهج الديكارتي كله لم تجد خيرا من المنهج الذي أسلفناه عن جابر" وقد أسلفنا تطابق ديكارت في أساس فلسفته مع الغزالي في أدق تعبيراته.

يشتهر جابر بأنه أول من أعلن أنه لا بد لكل تجربة من "تصميم تكامل" يشتمل على تحديد الغرض منها واتخاذ الأساليب الموصلة إليه مع الابتعاد عن المستحيل عقلا واختيار الوقت الملائم لإجرائها مع اصطحاب الصبر والأناة والصمت والتحفظ وعدم الاغترار بالظواهر. وإذا أضفنا هذه التعليمات التنفيذية للتجربة إلى القواعد الأربعة التي أسلفناها من البدء بدراسة الباب الذي تجري التجربة في مجاله إلى الاعتماد على ما استقرأه المجرب بنفسه وسخاء الجهد وعدم اليأس والمران العملي، فإننا بذلك نرى التطابق مع شروط استعمال آلة القياس كما جاء برسالة الشافعي.

وجابر فيلسوف موسوعي، يقول عنه فيلسوف كيمائي طبيب، بعد أكثر من قرن، هو الرازي: "أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان".

وفي العصور الحديثة يقول الطبيب الفرنسي لكلير (١٨٩٠م): "إن جابرا أكبر علماء القرون الوسطى وأعظم علماء عصره" ويقول اكليمائي الفرنسي برتيلو: "إن أثر جابر في الكيمياء كأثر أرسطو في المنطق".

ومن كشوف جابر في الكيمياء ما لم يظهر للمتأخرين إلا على يد دالتون (١٨٤٤) وهو تفسير الاتحاد الكيمائي بين المعادن باتصال ذرات العناصر بعضها ببعض.

* * *

وكتب جابر في الفلسفة كثيرة،وتقديره للدلالات أصولي فالاستقراء عنده لا يفيد القطع إلا أن يكون كاملا كما ورد في رسالة الشافعي. ولذلك يقسم جابر القياس المنطقي إلى ثلاثة أقسام، ويقدر لكل قدره في الدلالة، فيرى "أن دلالة المجانسة منها دلالة الأنموذج كمن يريك بعض الشئ دلالة على كله. وهذا استدلال غير قاطع، وكذلك دلالة جرى العادة "ليس فيه علم يقين اضطراري برهاني أصلا بل علم إقناعي يبلغ أن يكون أحرى وأولى وأجدر لا غير – وإنما وقع منه تعلق واستشهاد الشاهد على الغائب لما في النفس من الظن والحسبان فإن الأمور ينبغي أن تجري على نظام ومشابهة ومماثلة. وبالجملة فليس لأحد أن يدعي أنه ليس في الغائب إلا ما شاهد. إنما ينبغي له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه".

وهذه العبارات من جابر في صدد قياس المثل أو الشبه تعبر عن نسبية الرأي في الفقه، إذا لم تكن الإحاطة كاملة.

ويقول جابر فيعيد برهانا للإمام جعفر الصادق عن عدم إنكار ما لم يحط المرء بعلمه: "وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهري (القائل إنما يخلقنا ويهلكنا الدهر) يمنع أن يكون العالم مصنوعا لأنه لم يشاهد، ولا واحد من الناس، بدء تكوينه أن يقال له: ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل.. وتذكر كون مدينة أو قصر ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه؟ فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التي أثبت بها قدم العالم.. وقد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات فأمكن أن يكون أكثر الموجودات مما لم تشاهده".

٧- الخوارزمي (٢٣٥هـ = ٨٥٠م): عمل الخوارزمي للمأمون بعد إذ عاد المأمون من خراسان. ثم انقطع للعمل في "بيت الحكمة" الذي أنشأه الرشيد، وزاد المأمون محتوياته من كل فج، ثم تولى الخوارزمي مرصد بغداد وألف كتاب "الجبر والمقابلة" وطلب إليه المأمون اختصاره فاختصره وأشار إلى ذلك في مقدمة المختصر.

ووضع كتابا في الحساب بالأرقام الهندية ليسر على التجار والموظفين حساباتهم وأشار إلى موضع الصفر.

وترجمت كتب الرازي مبكرا إلى اللغة اللاتينية، وكانت لغة العلم التي تجتمع عليها أوروبة إذ لم تكن لغتها الحالية قد أصبحت صالحة لنقل العلم، بل كانت لهجات وليدة وانتفع الأوروبيون مبكرين بالترجمة كل انتفاع فنقل اسكندري فلادي (١٢٢٠م) عن كتاب الخوارزمي فألف كتابا في الحساب سماه (كارمن دي الجوزمو) فهو منسوب لاسم الخوارزمي محرفا إلى اللاتينية. كما حرف لفظ لوغاريتم. ثم نقل عنه يوحنا الهاليفاكسي (١٢٥٠) كتابا يحمل اسمه(الجورزمي) كما ترجمت كتبه بأمر فردريك الثاني ملك صقلية. وتعلم الجبر أولارد البائي في ذلك العهد[٣٤] وترجم كتاب الجبر والمقابلة روبرت شستر. وعن كتب الخوارزمي عرفت أوروبة الأرقام الهندية وعلم الجبر.

ومنذ سنة ١٢٠٢ ميلادية دعا ليوناردو إلى استعمال الأرقام العربية بدلا من الأرقام اللاتينية فظهرت في النقوش وفي العملة ابتداء من سنة ١٤٢٤ كما ظهرت سنة ١٤٨٥ بالنمسا ثم سنة ١٤٨٩ في ألمانيا ثم سنة ١٥٣٩ في اسكتلندا ثم في انجلترا سنة ١٥٥١.

لكن البابا سلفتروس (٩٩٩- ١٠٠٣) كان من تلاميذ قرطبة بالأندلس، وهو راهب، فلما صار بابا أنشأ جامعتين وأمر باستعمال الأرقام العربية. فهو أسبق الجميع في إدخالها إلى أوروبة.

يقول كاجوري (مؤرخ الرياضيات): إن القوى العجيبة في علم الحساب تعزى إلى الأرقام العربية الهندية والكسور العشرية واللوغاريتمات.

ولكن البحث لم يقف عند هذا الحد، فقد استمر العلماء يبحثون ويحاولون كشف أسرار جديدة عن نشأة الكسور العشرية.. وأخيرا أعلن العالم الرياضي بول لوكي في سنة ١٩٤٨ أن اختراع الكسور العربية يرجع إلى غياث الدين جمشيد الكاشي الذي توفي حوالي سنة ١٤٣٠ وقد سبق ستيفن بمائة وستين عاما وله مؤلفات رياضية منها "مفتاح الحساب" ومنه نسخ مخطوطة بمكتبة ليدن ومكتبة جامعة برنستون.

وبهذه الأرقام العربية والكسور العشرية وعلم الجبر والمقابلة، بلغت الرياضيات العالمية مبالغها في العصور الحالية.

---

(٣٤) راجع ص٢٣٤ من هذا الكتاب حيث يرجع المؤرخ درابير كشف علم الجبر إلى المنهج الإسلامي في المشاهدة والتجرب.

٨- الكندي: فيلسوف العرب (١٧٥- ٢٥٢هـ) (٨٠١- ٨٧٨م): الكندي فيسلوف العرب كما يلقبونه فأبوه أمير الكوفة للمهدي وجده الأشعث بن قيس صاحب النبي ﷺ، وأجداده ملوك نجد (اليمامة) حيث "الرياض" عاصمة المملكة العربية السعودية الآن.

وهو يعرف الفلسفة بأنها "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان" وسيعرفها ابن سينا بعد أكثر من قرنين، إنها "استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر طاقة الإنسان" وفي لزومها للشريعة يقول ابن رشد "الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة" ويقول: "إن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها وذلك مأخوذ من آيات كثيرة" وأرسطو يقول: "إنها علم كل شئ".

والله تعالى يقول: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

تفقه الكندي في علوم الدين. فهذا سبط صحابي يحتفظ بصدارة في العلم. واستبحر في اللغة العربية والشعر حتى رأيناه في مجلس المعتصم (٢١٨- ٢٢٨) يساجل شاعر العربية الكبير (أبا تمام) واختاره المعتصم مؤدبا لابنه (الواثق)، ومن قبل ذلك عهد إليه المأمون (٢١٨) بالعمل في دار الحكمة وكلفه بترجمة بعض كتب أرسطو إذ كان قد درس اليونانية ثم درس فلسفة اليونان – ولم يكن ذلك بمستساغ لدى بعض – فكتب الكندي رسالة إلى المعتصم يدافع فيها عن الفلسفة ويقول: "يجب علينا أن نشكر الفلاسفة الذين سبقونا للبحث عن الحقائق لا أن نهجم عليهم بالقدح ولا ضير أن يجيئوا من غير بلداننا".

وكانت له مكتبة اشتهرت باسم (الكندية) كما عمل طبيبا للقصر ورئيسا لديوان الخراج للمأمون والمعتصم وللواثق. ومن تقديره لجلال العلم قوله "إن العاقل يظن أن فوق علمه علما. فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة.. والجاهل يظن أنه تناهى فتمقته النفوس لذلك".

وهو عالم في الهندسة والطبيعة يستخدم الفرجار في قياس الزوايا الهندسية، ويزن أثقال السوائل، ويجري تجارب جاذبية الأرض قبل إسحق نيوتن بنحو ثمانمائة عام، ويوجب دراسة الرياضة حتى نفهم الفلسفة عن دراية لا رواية.

وهو فلكي له مؤلفات رائدة في المرئيات والفلك وأوضاع الكواكب وظواهرها وصلة ذلك بنشأة الكواكب وتأثيرها على الأرض. وفي بعض مؤلفاته يثبت أن كل ما في العالم من الأجرام كروي الشكل.

وهو كيميائي صاحب تجارب في الكيمياء كما تثبت رسالته "إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة" أي تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة.

وهو عالم موسيقي وضع كتبا في الموسيقى، وقد اقتفى الفارابي أثره في التأليف فيها، وقد أحصى له ابن النديم في كتابه (الفهرست) أي في القرن الرابع عشرات المؤلفات وقد ترجم بعضها جيراردي كريمونا. فهي في أوروبة من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري).

لذلك يقول عنه الإيطالي (كاردانو) المتوفى سنة ١٥٧٦: "إنه واحد من الاثنى عشر عبقريا الذين ظهروا في العالم" ومن قبل ذلك يقول روجر بيكون المتوفى سنة ١٢٩٤: "إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس".

ويستعمل الكندي في الاستدلال نصوص الاستقراء والاستنباط في القرآن ومنها قوله تعالى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وقوله: (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) وقوله: (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ) وقوله: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وقوله: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وهذه بعض آيات الاستقراء والاستنباط تسجل صريح عمله بالمنهج القرآني.

٩- أبو بكر الرازي (٢٤٠هـ- ٣٢٠هـ) - (٨٦٤م - ٩٢٥م): جالينوس[٣٥] العرب كما يسميه المؤخرون الفرنجة بلغ مبلغا عاليا في دراساته الفلسفية وأكب على دراسة الكيمياء حتى انتصف عمره. ثم مرضت عينه وطلب إليه الطبيب خمسمائة دينار لعلاجه فقال لنفسه: هذه والله الكيمياء. يقصد "تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة"وتعلم الطب فكان له من الفلسفة والكيمياء خاصة مؤهلان لبلوغ أعلى الدرجات في الطب في جميع العصور.

---

(٣٥) أكبر الأطباء في التاريخ من عصر الإغريق حتى عصر الرازي توفي سنة ٢٠٠ ميلادية.

ومن تعريفه للفلسفة "إنها التشبه بالله عز وجل بقدر طاقة الإنسان" فصارت ممارسته لفنه ممارسة للعمل الصالح. يقول إذ هو أشهر أطباء عصره "ينبغي للطبيب أن تكون حالته معتدلة لا مقبلا على الدنيا كلية ولا معرضا عن الآخرة كلية فيكون بين الرغبة والرهبة" ويؤلف كتاب "من لا يحضره الطبيب" ليخدم العاجزين عن أجور الأطباء.

نجب الرازي في مدرسة إمام التجريبيين جابر بن حيان،فأصبح يقصر وصف الفيلسوف على من درس الكيمياء. ويقول: "أنا لا أسمي فيلسوفا إلا من كان على علم بصناعة الكيمياء" واشتهر للرازي في الكيمياء كتاب "الأسرار" وكتاب "سر الأسرار" وقد ترجم إلى اللاتينية بين أوائل الكتب المترجمة وشملت تجاربه في عالم الكيمياء الغذاء والدواء ثم الحيوان فالإنسان عندما مارس الطب ففتح الأبواب للطب الحديث.

وتعاظم قدر كتابيه"الحاوي" و"المنصوري" فتعلمهما أهل أوروبة منذ القرن الثالث عشر للميلاد إذ ترجم "الحاوي" فرج بن سالم اليهودي سنة ١٢٧٩ وطبع في مطابع البندقية سنة ١٥٤٢ فصيرته المطبعة في متناول أكبر عدد من المتخصصين كما أصبح كتابه "المنصوري" مرجعا أساسيا للطب إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي مع كتاب "القانون في الطب" لابن سينا وتعارف المتخصصون أن الرازي هو (الطبيب) الفيلسوف، وأن ابن سينا هو (الفيلسوف) الطبيب.

برز في كتاب "المنصوري" اهتمام الرازي بتشريح الجسم، والتشريح هو طريق الاستقراء لأعضاء الجسم وأوصافها ووظائفها وتجلت في كتاب "الحاوي" مشاهدات المؤلف وتجاربه في مختلف الأعراض على الحيوان "والملاحظات السريرية" للمرض ولفعل الأدوية في الجسم يوما بعد يوم. وقد أحصى له المستشرق ما يرهوف ٣٥ ملاحظة سريرية.

وساعده البيمارستان "المنصور" إذ وفر له كل مناسبة يجري فيها تجاربه بمثل ما ساعد هو البيمارستان عند بنائه، فاختار له مكانا على أساس التجربة في أكثر نواحي بغداد جفافا إذ وزع قطع اللحم على المناطق المزمع إقامة المستشفى فيها واختار الناحية التي كانت قطعتها آخرتها تعفنا.

وكان يهوى الموسيقى فيعزفها وقت فراغه بالمستشفى، فشاهد مرضاه يهرعون إليه مع ما يلم بهم من الألم فاستنبط أثر الموسيقى في دفع الكلل. وتابع تجاربه حتى استقر لديه أثر الموسيقى في الشفاء مع إضافة بعض العقاقير لاستخدام العقل والحس. أي الروح والجسم في إصلاح النفس وهكذا كشف علم جديد.

وهو أول من أجرى التجارب على القردة لتركيبها العضوي ووضوح رد فعلها للتجربة يقول: "أما الزئبق العبيط فلا أحسب له مضرة، إذا شرب، أكثر من وجع شديد في الأمعاء وقد سقيت منه قردا كان عندي فلم أره عرض له إلا ما ذكرت، وخمنت ذلك من تلويه وقبضه بفمه ويديه على بطنه أما إذا صب في الأذن منه فله نكاية شديدة".

وهو أول من استعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح، إذ جرب تفاعلها الكيميائي مع الجسم وامتصاصه لها.

وقد يقسم المرضى مجموعتين يعالج إحداها بالفصد ويترك الأخرى دون فصد. ويستقري الآثار ويستنبط النتائج.

ولم يدخر نفسه في التجربة فكان يجربها على ذاته كأن يقول: "جربت نفسي ورأيت أن أجود ما يكون ساعة ما يحس الإنسان بنزول اللهاة والخوانيق، أن يتغرغر بخل حامض قابض مرات كثيرة".

* * *

يعلن أن الممارسة دون علم مجازفة،ويوصي بالإلمام الحقيقي بالعلم وأن يتخذ الطبيب دراساته مرجعا مجموعا بين يديه يقول: "وإذا كنت معنيا بالصناعة وأحببت ألا يفوتك ولا يشذ عليك منها شئ، فأكثر جمع كتب الطب ثم اعمل لنفسك كتابا عظيما فيكون ذلك كنزا وخزانة عامرة".

ويضع أقدام الطبيب على الطريق المنهجي في تفاصيله يقول: "اطلب في كل مرض هذه الرؤوس: التعريف أولا... ثم اطلب العلة والسبب.. ثم اطلب هل ينقسم بسببه. أو نوعه أولا.. ثم اطلب تفصيل كل قسم مع الآخر. ثم العلاج ثم الاحتراس ثم الإنذار" ويلزم تلميذا له (أن يكون قد أحكم الأصول وقرأ الفروع).

يقول: "لا ينبغي لنا أن نترك شيئا نؤمل فيه نفعا من أجل أن قوما جهلوا وتعدوا. وقد كان الواجب عليهم لو كانوا أهل رأي وتثبت ألا يبادروا إلى إنكار ما ليس عندهم على بطلانه برهان" وينهي عن العمل بالظن أو الوهم أو الخرافة فيندد بالذين يعتقدون بوجود قوى خفية تحدث آثار في العلاج.

وهو كيماوي يفسر فعل الدواء في الجسم بتفاعل كيماوي بين الدواء والجسم. وإذا كان لعامل آخر غير الدواء أثر ،فهو عامل الإيمان بالله والرجاء في فضله ونبذ القنوط من رحمته.

وكل ذلك منهجي: العلم أولا ثم التعريف أو التشخيص للواقع وإدراك العلة بالسير والتقسيم وعدم إنكار ما لا دليل على بطلانه ورفض الأوهام والخرافات واستنباط سبب فعل الدواء بالتفاعل مع الجسم وانتظار الشفاء بالرجاء في فضل الله.

وهذا الرجاء منهجي، لأنه عامل نفساني يصل المريض بفضل الله بأن "يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم خاضع لأخلاق النفس" وإذا كانت أساسيات التشخيص عنده هي مشاهدة واختبار البول والنبض والنفث وحالة التنفس والقئ والبراز فقد ضمن مدوناته الأخرى على ورقة سرير المريض ما يتعلق بحالته الاجتماعية وتاريخ مرضه. فهذا حائك وهذا وراق وهذا بواب وهذا أمير وهذا صبي ابن خمس سنين. كما تحتوي الورقة على مبدأ المرض وذروته وانحطاطه.

ومن نظرياته التي انتهى إليها أطباء القرن العشرين للميلاد في شأن المرض بالحمى أن "القوة للعليل كالزاد للمسافر والمرض كالطريق ولذلك يجب أن يعنى الطبيب كل العناية ألا تسقط القوة قبل المنتهى".. يقول عن بعض علاجاته: "لم ألتفت أنا إلى الحمى لأني علمت لما هي. فصرفت عنايتي إلى تقوية القوة لأني علمت أنه يحتاج إلى قوة قوية" والعلاج بالغذاء أسعد للطبيب والمريض من العلاج بالدواء "إذا استطاع الطبيب أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة"وهذه أيضا نظرية يدعي بعض أنها حديثة.

ولا يرفض المجهول بل يفض حجبه يقول: "إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل لم نر أن نطرح كل شئ لا تدركه ولا تبلغه عقولنا، لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا. بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شيئا من ذلك محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له".

وفي الإجماع توسيع للاستقراء يقول: "ما اجتمع عليه الأطباء وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن إمامك" فهذه أصول ثلاثة:

الإجماع والاستقراء والقياس. فهو يضيف اجتهاده إلى إجماع السابقين عليه ويقول: "لا تلتفتن إلى الأدوية الغريبة ما أمكنك، إلا أن يصبح عندك أمر أقوى بالتجربة والمشاهدة".

فإذا اختلف النظريون والممارسون، فالرازي يوصي بعرض الخلاف على "كثير من أصحاب التجارب فإن أجمعوا على مخالفة النظريين قبل منهم" وتعليل ذلك واضح من قوله الآخر "الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج مما تصنعه الكتب دون أعمال الماهر الحكيم برأيه خطر".

أما المعالجون بغير علم أو تجربة أو خشية الله ففيهم قوله: "أما الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايتهم وكثرت شهواتهم فهم قتالون".

طفر الطب طفرته العظمى على يد الرازي بالمنهج العلمي المتكامل الذي نقرأ فيه فحوى شروط الشافعي لاستعمال (آلة القياس). وما يزال تأثيره العلمي حقيقة تشهد بها المؤتمرات العالمية لذكراه وصورته المعلقة في قاعات كلية الطب في باريس إلى جوار صورتي ابن سينا (الفيلسوف الطبيب) وابن رشد (الفقيه الفيلسوف – الطبيب) أما جامعة برنستون في أمريكا فخصصت جناحا لعرض آثاره وكذالك عقدت جامعة عين شمس في القاهرة مؤتمرا عالميا لذكراه.

١٠- المسعودي (٣٤٦هـ = ٩٥٦م): المسعودي عالم "فلكي" وجيولوجي ومؤرخ وجغرافي، جده الأعلى عبد الله بن مسعود سادس ستة أسلموا. كان يحجب رسول الله ﷺ ويعمل في خدمته حتى كان البعض يحسبه من أهل بيته وكان يجتهد رأيه فعلم الكوفة أن تجتهد لتنتج فيها بعد: مدرسة الرأي. وفي سيرته نشأ سبطه فاجتهد في العلوم الفلكية والكونية وجاب الآفاق يؤرخ ويصف ويدون مشاهداته ويدلي بملاحظاته حتى دون مؤلفين شهيرين وضع لهما الفهارس وبين فيهما مراجعه، شأن التأليف في العصر الحديث وهما:

١- "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو موسوعة في التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا. ومن ملاحظاته فيه إثباته العلاقة بين ظاهرة المد والجزر وبين ضوء القمر.

٢- "التنبيه والإشراف". وهو كتاب في الفلك والجغرافيا والتاريخ فيه ملاحظاته عن التطور العضوي الذي انتهى إليه من واقع مشاهداته الشخصية.

والكتابان حاصل تطويفه بآفاق العالم الإسلامي على مدى ربع قرن يعبد الله بالسير في الأرض والنظر في المخلوقات ومشاهدة الآيات، مع جمع الوثائق وإبداء الآراء.

وهو أول من أثبت العلاقة بين البيئة والإنسان والاقتصاديات والعادات وتطبيق قواعد ستظهر في علم النفس فيما بعد. وفي عمل ابن خلدون بعد خمسة قرون. ولهذا يسميه ابن

خلدون (إمام المؤرخين) وليس ذلك لسبقه في الزمن، فالطبري العظيم يسبقه في الزمان إذ مات سنة ٣١٠هـ، وإنما أطلق ابن خلدون عليه ذلك اللقب، لأنه معلم له طريقته في تدوين التاريخ وفي بيان أن التاريخ علم اجتماعي.

١- ومن تقديره للحرية الدينية حق قدرها صدق وصفه للقسطنطينية عاصمة المسيحية ووصف رهبانه وطقوسهم الدينية كهيئة صدقه وموضوعيته في وصف رحلاته، فلا يميل عليها بل يميل إليها، حيث يقول: "أتمنى أن تكون هذه المدينة للإسلام" وتحقق السماء الأمنية بعد خمسمائة عام، فتكون هذه المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية حين فتحها العثمانيون بعد خمسمائة عام (١٤٥٣).

٢- ومن فكره الثاقب، اقترح تغيير الطبيعة الجغرافية بوصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة، وتحقق السماء نظريته التي تستبق الزمن، فيصل المصريون البحرين بعد ثمانمائة عام مجملين وجه كرة الأرض. واصلين شطري العالم. ومن علماء الفرنجة من يقارنون بين المسعودي وبين المؤرخين الأقدمين ومنهم من يرون كل مقارنة بغيره ظلما له.

١١- الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠): تجتمع أطراف المنهج الأصولي فيما كتبه ابن الهيثم وقد نيف على الستين في سنة ٤١٧هـ "أوائل القرن الحادي عشر الميلادي" "إني لم أزل منذ الصبا مرويا في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل منهم بمعتقده من الرأي فكنت متشككا في جميعه. موقنا بأن الحق في واحد وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه.. فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع الديانات فلم أحظ بشئ منها بطائل. ولا عرفت معه للحق منهجا ولا إلى الرأي اليقيني مسلكا جديدا فرأيت ألا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية".

دعاه الحاكم بأمر الله إلى القاهرة فوفد من بغداد واستقبله في ظاهر القاهرة ٣٨٦ = ٩٦م إجلالا له، وكان قد انتهى إليه قوله: "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص فقد بلغني أنه ينحدر من موقع عال في الإقليم المصري".

وسافر إلى أسوان لكنه لم ينفذ المشروع إما لجسامة النفقات أو ضخامة الجهد وإما لتغير مزاج الحاكم بأمر الله – وكان قلبا – ولا شك في أن المشروع كان متصلا بإقامة وسائل للري تستخدم جريان الماء من أعالي البلاد قبل أن يصنع المصريون ذلك بعد نحو ألف عام.

ومع مكانته لدى الخليفة لم يعش على عطائه، بل أقام بجوار الجامع الأزهر ينسخ الكتب ويبيع في كل سنة ثلاث نسخ من ترجمات كتب الفلكيين الإغريق بمائة وخمسين دينارا لا يقبل فها مماكسة.. ولا ريب في أنه كان على وفاق مع السلطان فلو غضب عليه الحكم بأمر الله لاختفى أثره.

بايعت أوروبة للحسن بن الهيثم على أنه مكتشف علم الضوء وخطأت نظريات إقليدس[٣٦] وبطليموس[٣٧] في أن العين ترسل أشعة بصرية وأخذت بنظريته أن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعته. وللحسن قبل ذلك "٤٧ كتابا في الرياضيات و٥٨ كتابا في الهندسة" انتفع بها روجير بيكون ثم كيلر وليونارد دافنشي وكوبرنيكس.

وليس غريبا أن نقرأ لابن الهيثم وهو يستعرض تجاربه تعبيرات أصول الفقه وطرائقها فهو يستعمل الاستقراء وقياس الشبه حيث يقول: (لا يتم الإدراك إلا بتشبيه صورة المبصر بصورة قد أدركها من قبل ثم إدراك التشابه بين الصورتين. ولا يدرك التشابه بين الصورتين إلا بقياس) ويستعمل كلمة "المعنى" كاستعمال الشافعي لها في التعبير عن (العلة). ويكتفي بخصائص الشئ كلها أو أكثرها فيقول: "استقراء جميع المعاني أو أكثرها" ويستعمل ما يستقرئه من سنن الله في خلقه وهي من وجوه الإقناع القرآني الباهرة فظواهر الطبيعة عند ابن الهيثم خاضعة لمبدأ "الحتمية العلمية" وهي قوانين يكشفها الاستقراء الكامل يقول: "إن ظواهر الطبيعة تجري على نظام، ويتكرر حدوثها على منهج واحد يتوافر فيه التوافق والتجانس والانسجام" ويقول عن كيمياء الأشياء: "إن طبيعة صغار الأجزاء وكبارها واحدة ما دامت حافظة لصورتها فالخاصة التي تخص طبيعتها تكون في كل جزء منها صغر أو كبر ما دام على طبيعته وحافظا لصورته".

ويستعمل لفظ الاعتبار (وهو قرآني) بمعنى الاستنباط ويستعمل أخص مسالك العلة وأدقها وهو "السبر" أي "تنقيح المناط" يقول في رسالته عن الضوء "هذا المعنى يفسد عند السبر والاعتبار" ويقول في كيفية إجراء التجارب بشروط استعمال القياس، إذ تسري على كل تجربة علمية سريانها على كل قضية قياسية: "ونبتدئ النظر في مبادئه ومقدمته ونبتدئ في البحث

---

(٣٦) أشهر علماء الهندسة الإغريق.وقد علم الهندسة في مدرسة الاسكندرية في حكم بطليموس الأول في القرن الثاني قبل الميلاد.

(٣٧) رياضي مصري ولد في صعيد مصر في القرن الثاني للميلاد. وهو صاحب كتاب سنتكس المسمى عند العرب (المجسطي) وهو كتاب في الفلك يضع الأرض محورا للكون وبقيت نظريته سائدة في أوروبة حتى القرن السادس عشر. ترجمه العرب في عهد المأمون.

باستقراء الموجودات. وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حالة الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس..

ثم نترقى في البحث والمقاييس، مع التدرج، والترتيب مع انتقاء المقدمات، والتحفظ من الغلط في النتائج" كل أولئك مع التمييز بين التجربة "عندما يوجد في مسير الضوء غبار" وبينها "إذا لم يوجد في مسير الضوء غبار".

ولا ينخدع بهوى نفسه فيقول: "ونجعل غرضنا في جميع ما تستقرئه استعمال العدل لا اتباع الهوى" وتستمر أمانة الرأي مع الأناة والتثبت ومع النقد والتحفظ. يقول: "فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدور، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي يقع عندها اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم مواد الشبهات".

وهو مع كل هذا يتورع ويتحفظ على تجربته فيقول: "وما نحن مما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية براء".

ويحصل المنهج في حاصل التجربة: "قد تبين من جميعها بيناه بالاستقراء والاعتبار أن إشراق جميع الأضواء إنما هو على سموت مستقيمة".

* * *

يقول الدكتور مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس في منتصف هذا القرن في مقدمة كتابه عنه: "ينبغي لنا أن نستبدل بأسماء روجر بيكون، ومورليكوس وكبلر ودي لابورتا، اسم الحسن بن الهيثم فعلى يده أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلامي وهو الجمع بين الاستقراء والقياس وإن أثره في علم الضوء ليس بأقل من أثر نيوتن في الميكانيكا".

وقد عرف له هذه المكانة روجر بيكون وهو من كبار أحبار الإنجليز وفلاسفتهم في القرن الميلادي الثالث عشر فأعلن أن "الكندي والحسن بن الهيثم يوضعان في الصف الأول مع بطليموس".

ذلك أن كتب الحسن بن الهيثم كانت مترجمة إلى اللاتينية منذ سنة ١٢٣٠ ميلادية على يد ويتلو Witelo ونشرها في القرن ذاته جيراردي كريمونا كما ذكر ذلك ألدومبيلي في كتابه عن

العلم العربي ثم طبعت في سنة ١٥٤٢م كما نشرت ترجمة ريزنر Risner لها في العام ذاته فانتشرت بين الملأ بعد ثلاثة قرون من تداولها بين أيدي الأحبار والعلماء في القرون الوسطى.

وللحسن كتاب عن أثر الموسيقى في الإنسان والحيوان. وبتأليفه في الموسيقى ينضاف إلى الفلاسفة الموسيقيين يتقدمهم الفارابي والرازي وابن سينا.

١٢- ابن سينا (٣٧٥- ٤٣٨): برز "ابن سينا" في بواكير شبابه في الفقه وألف فيه. ثم اتجه إلى الفلسفة فقرأ كتب الرازي في الفلسفة والطب فصار العلمان ميدانه. له ١٠٧ مؤلفات في العلوم والفلك والطب والفلسفة أشهرها كتاب (القانون) في الطب ومنها كتاب الشفاء يقع في ٢٨ مجلدا وفي تآليفه الأسس الأولى لعلم الطبقات Sadimantoligy وعلم الرسوبيات Stratigraphy كتب عن نفسه (... وأكملت العشرين من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب... ثم جاء إلى بخارى.. وكان يدعى التفلسف وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد. وكنت من أجود السالكين وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عليه عادة القوم... ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجي "اقتباس من كتاب المدخل إلى مقولات أرسطو".. واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهيات. وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم إني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب. وتعهدت المرضى... وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه... ثم توفرت على العلم والقراءة فيه سنة ونصفا وأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة.. فكنت كلما تحيرت في مسألة ولم أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت على الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح الله لي المنغلق وتيسري المتعسر.. وقرأت كتب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم فيه... وفي يوم من الأيام كان بيد دلال مجلد ينادي عليه.. فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة فانفتح علي.. وكان بجواري رجل سألني أن أؤلف له كتابا جامعا في هذا العلم فصنعت له المجموع وسميته به وكان في جواري أيضا رجل.... متوحد في الفقه والتفسير والزهد، فصنعت له كتاب (الحاصل والمحصول) في قريب من عشرين مجلدا وصنفت له كتابا في الأخلاق".

هو فقيه – أديب – وفيلسوف – طبيب – وله كتب ومناظرات في الفقه والتفسير وغيرها مما لا يفتح الله فيه إلا بأصول الفقه. أما دراسة الفلسفة اليونانية التي بدأت تتسرب إلى معارف العرب في القرن الرابع الهجري من ترجمات كتب اليونان – وقد حاول الفارابي أن يمزجها

بمعارف العرب – فقد ربطت فكريهما كما ربطته بالرازي دراسة فلسفته حتى يبلغ الذروة كمن يطلع إلى أفق أبعد إذا جلس على أكتاف الآخرين.

* * *

اتصل ابن سينا بعلماء عصره ومنهم الثعالبي (٤٢٩) وابن مسكويه (٤٢١) والبيروني (٤٤٠) وبكبير في التصوف هو أبو سعيد بن أبي الخير (٤٤٠) [٣٨] أما كتابه الموسوعي في الطب (القانون) فقد أصبح كما قال عنه وليم أوسلر: "الإنجيل الطبي لأطول مدة من الزمان" لجامعات أوروبة حتى سنة ١٧٠٠ للميلاد منذ ترجمة جيرار الكريموني إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد بل طبع أكثر من خمس عشرة طبعة باللغات الأوربية في المدة من ١٤٨٣–١٥٠٠م وكانت هذه اللغات قد بدأت تصلح لكتابة العلوم، كما كان جوتنبرج قد اخترع المطبعة سنة ١٤٥٠.

قدم ابن سينا في كتاب القانون ٧٦٠ عقارا دخلت في علمي النبات والصيدلة في معاهد أوروبة. وظهرت في بحوثه الطبية كشوف حديثة مثل أسباب السكتة وانتشار الحصبة وحصى المثانة وفيها يقول الدومبيلي: "يصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا إلى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية" ومن كشوفه المعمول بها ما يسمى في المستشفيات الآن كيس الثلج واستخدام التخدير في الجراحات وحقن المريض تحت الجلد.

وبتحليل نفس المريض كشف ما يسمى الآن علم الأمراض النفسية باستقراء الوقائع وتقسيم الأوصاف والتنقيح والسير مع التثبت والتكرار حتى يصل إلى "المؤثر" في العلة فيشخص فيها المرض فيعالجه.

دعاه حاكم جرجان لمعالجة واحد من ذوي قرباه ودون ابن سينا جربته فقال: "أصبح من الممكن معرفة المعشوق إذا أصر العاشق على عدم الكشف عنه وهذا الكشف هو إحدى طرق العلاج. وطريقة ذلك أن تذكر عدة أسماء على مسمع العاشق من الوقت الذي يجس فيه النبض. وعن ظهور عدم انتظام في النبض لدرجة أنه يكاد يتوقف فينبغي إعادة الكرة" وقال: "استعملت هذه الطريقة مرارا وتكرارا واكتشفت بذلك اسم المعشوق إذ عند ذكر أسماء المدن والشوارع والصنعة في الوقت الذي يجس فيه النبض، فإن التغير يدجل على العلاقة بين المكان والصنعة

---

(٣٨) كتاب الإمام محمد بن عبد الوهاب للمؤلف ص٥١ تحت باب (التصوف الفلسفي) طبعة دار المعارف.

والمعشوق. وبذلك يمكن معرفة جملة أوصافه.. جربنا ذلك بأنفسنا وتوصلنا لمعرفة معلومات مفيدة".

كان ذلك من ألف عام فجهاز كشف الكذب ليس حديثا.

وبالمنهج ذاته (الاستقراء والاستنباط) يحدثنا عن تكوين الجبال: "الغالب أنها تكونت من طين لزج جف على طول الزمان تحجر في مدة من الزمان لا تضبط، فيشبه أن تكون هذه المعمورة كانت في سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة في البحار وكثيرا ما يوجد في الأحجار إذا كسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها" أو يقول: "تنشأ الجبال عن سببين: فإما أن تكون نتيجة ارتفاع في قشرة الأرض بفعل الزلازل الشديدة، وإما أن تكون نتيجة عمل الماء إذ يشق طرقا تحفر الأودية وتنحت جبالا وذلك لأننا نجد صخورا ذات صلابة ويذهب الماء والريح بالصخور اللينة، ويترك الأخرى سليمة وهكذا تحدث أكثر التلال".

كما يقول عن السحب: "إنها تولد من الأبخرة الرطبة إذا تصعدت تصعيد الحرارة فوافت الطبقة الباردة من الهواء.فجوهر السحاب بخار متكاثف طاف في الهواء والبخار مادة السحاب والمطر والثلج والجليد والبرد".

وبلغ تأثير ابن سينا في علماء أوروبة في القرون الماضية ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي أن يقول رينان: (إن البرت الكبير Albert Magnus الحبر الألماني مدين لابن سينا في كل شئ، وإن القديس توماس الإكويني مدين في جميع فلسفته لابن رشد).

١٣- أبو الريحان البيروني (٣٥١- ٤٤٠هـ) (٩٦٥- ١٠٤٨م): البيروني عالم فلكي رياضي وكيمائي وطبيعي موسوعي المعرفة أديب في اللغة يرى العلم عبادة، ويحرص على العلم بدقائق الفقه وفرائضه. أهدى إليه السلطان مسعود جمالا محملة فضة فأعادها شاكرا وقال:"إنه يخدم العلم لا المال".

وحدث عن معارفه في الفقه القاضي كثير بن يعقوب عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الوالواجي قال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه فقال لي: كيف قلت لي يوما حساب الجدات الفاسدة (ميراث الجدة لأم) فقلت – إشفاقا عليه – أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أدع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها؟ فأعدت ذلك عليه وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ.

مكنت للبيروني صلته بالسلطان مسعود (الغزنوي) أن يمارس تجاربه ويصل بها إلى أمور تحكم عقل العالم الآن. ألف مائة وثمانين رسالة في المعادن والهندسة والحساب والفلك ووضع كتابيه الشهيرين (مفتاح علم الهيئة) وتاريخ الهند (تاريخ ما للهند من مقولة..).

أما منهجه العلمي فهو الاستقراء والاستنباط يشيد بهما في قوله: "لم تسكن نفسي إلى غير المشاهدة" وقوله: "على شدة حرصي أن أتولى الاعتبار واختيار له" وعلى هذين الأساسين:

١- سجل من النباتات الطبية التي شاهدها خمسة أضعاف ما سجله دسقوريدس عالم النبات اليوناني.

٢- قاس محيط الأرض ولم تسكن نفسه إلى قياس سبق في عصر المأمون فاختار جبلا في الهند مشرفا على البحر وعلى برية مستوية ثم قاس ارتفاع الجبل وهو يقول: "وعلى التجربة يلتجأ في مثل هذه الأشياء وعلى الامتحان فيها يعول".

٣- وقرر كروية الأرض بدليل أن: (أعالي الجبال تظهر للسائر نحوها أولا ثم يظهر سائرها بعد ذلك وكمثل الجبال سواري السفن).

٤- وبدليل ثان أن: "القاسم في محل منكشف الأفق ليس فيه شئ يمنع النظر إلى جميع الجهات يرى الأرض دائما على صفة مستو مستدير الحدود. فمن المعلوم أن الكرة هي الجسم الوحيد الذي يرى على شكل مستدير من أي جهة نظر إليه".

٥- وفي ذلك القرن الرابع أو الخامس الهجري يعلن البيروني: "أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها".

٦- ويعلن بعد تدليل: "لا محالة أن الخلاء الذي في بطن الأرض يمسك الناس حواليها" يقول ذلك قبل أن يقوله نيوتن سنة ١٦٨٧ الميلادي بستة قرون.

٧- ويصل إلى الثقل النوعي للمعادن بموازين دقيقة من اختراعه[٣٩]. وفي لابيروني قول المستشرق سخاو:"إنه أعظم علماء عصره ومن أعظم العلماء في جميع العصور" وقول

---

(٣٩) بلغت الأجهزة التي ركبها البيروني من الدقة في وزن الثقل النوعي أن يعطي أرقاما – من ألف عام تكاد تعادل أجهزة المعامل في عصرنا الحالي:

الذهب	عند البيروني	الآن
	١٩.٢٦	١٩.٢٦

المستشرق الأمريكي المعاصر أريوبوب: "في أي قائمة تحوي أسماء العلماء يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع، ومن المستحيل أن يكتمل بحث للرياضة أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو المعادن دون الإقرار بمساهمته العظيمة في كل تلك العلوم".

١٤- ابن البيطار: (٦٤٦هـ) والمنهج الأصولي من أوضح ما تقرؤه في استهلال ابن البيطار كتابه، (الجمع لمفردات الأدوية والأغذية) بتأكيد اعتماده على المشاهدة والتجربة دون التعويل على أقوال غيره مع تصحيح الغلط فيها و"التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل واعتمادي على التجربة والمشاهدة".

فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالخبر لا المخبر ادخرته كنزا سريا وعددت نفسي عن الاستعانة فيه بغير غنيا". وهو هنا يضيف إلى المشاهدة والاستنباط، العلم الذي سبق به غيره دون اعتماد على شخصية الراوية، وإنما كان اعتماده على صحة الرواية فهنا عناصر ثلاثة: العلم – والاستقراء – والاستنباط، دون أن يكتفي بالتراث العلمي أو يعتبره أساسا سابقا إلا أن يمتحنه بالتجربة ويتخذ منها أساسا في تصحيحه.

"وما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية... نبذته ظهريا أو هجرته مليا" أي يستبعده نهائيا أو حتى حين ليعود إلى اختباره.

و"لم أحاب في ذلك قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد غيره على صدفه. واختصصت بما تم لي به الاستبداد، وصح لي القول فيه ووضح عندي عليه الاعتماد".

ومن أبرز تلاميذه ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) وكان يصحبه في بعض رحلاته للمشاهدة والتحقيق يقول عنه: "لقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه".

الزمرد	٢.٢٧٣	٢.٧٣
اللازورد	٣.٩١	٣.٩٠
الحديد	٧.٨٢	٧.٧٩
النحاس	٨.٩٢	٨.٨٥

وقد ظل كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية مرجعا حتى العصور الحديثة ولخصه أحد سلاطين اليمن بين سنة ٩٦٤ و٦٩٦هـ (عمر بن سيف بن رسول (٦٩٩) تحت عنوان "المعتمد في الأدوية المقررة" كما ترجمه إلى الفرنسية سنة ١٨٨٣ الدكتور كلير في باريس بعنوان: Traite de simples par inb Al Beiter

١٥- التيفاشي ٦٥١هـ = ١٢٥م: أحمد بن يوسف التيفاشي أول جيولوجي في التاريخ يصنف المعادن تصنيفا يتبعه العلماء الآن وتظهر في تجاربه الملاحظات التي تعكس الواقع بنزاهة علمية والتاريخ يسجل له السبق فيما يسمى (تجربة الشعلة) Element Flame Test ويقول عنها في باب اللازورد: "ومنها أنه إذا وضعت قطعة منه في جمر ليس له دخان خرج لسان النار من الجمر منصبغا بصبغ اللازورد ويثبت لون اللازورد على ما هي عليه وبهذه المحنة (الامتحان: التجربة) يختبر خالصه من مغشوشه".

وفي مؤلفاته إشارات كثيرة لتجاربه وسيره في الأرض لينظر المعادن الأصلية في مواطنها الخاصة. ومن الأمانة العلمية يحيل إلى المراجع وفي ذلك يقول:

"مع ذلك فمعظم الخواص المذكورة فيه مما خبرته بنفسي أو وثقت بصحة النقل فيه عن غيري من المتقدمين فأحلت عليه" وقد يقول: "مما اختبرته ووقفت عليه بالعمل" أو "وقد وقفت على ذلك بالتجربة". ومن تجاربه ما يظهر صلاته بالأمراء وبلوغه غاية الإتقان. يقول عن رحلة له إلى القاهرة:

(... وقد صنعت وأنا بالقاهرة المعزية – كلأها الله – من هذا اليشم Jade أواني أهديتها لبعض الأمراء ممن يقتني اليشم ويحرص عليه وعنده منه أوان فلم يشك في أن ما أهديت إليه معمول في الصين. فعرفته أني عملته فأنكر ذلك حتى أوقفته على الدليل فيه وصنعت له أواني بقدر وزن مخصوص اقترح به وصدق عنه ذلك"[٤٠].

١٦- عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧هـ - ٦٢٩هـ): البغدادي فقيه شافعي وأستاذ لغة وبيان، وطبيب صاحب تجارب خالدة الأثر في الطب، وفد إلى مصر وألقى دروسه في الأزهر واستقبله صلاح الدين في معسكره. وكتب البغدادي عن اللقاء فقال إنه وجده: "ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة، قريبا بعيدا، سهلا محببا. حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف

---

(٤٠) عن بحث للدكتور محمد يوسف حسن قدم للندوة العلمية في مهرجان العالم الإسلامي بلندن إبريل سنة ١٩٧٦ (بالإنجليزية ولم ينشر).

العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة. ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع. كان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ويتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ويتأسى به جميع الناس.. ويأتي داره ويمد الطعام".

وأثنى البغدادي على حكم الوزير "قره قوش" لأنه بنى من حجارة الأهرام نحو أربعين قنطرة كانت من العجائب.

ولم يضن على موسى بن ميمون العالم اليهودي[٤١] بوصف صحيح حين لقيه بالقاهرة وتذاكرا في العلم قال: "فوجدته فاضلا للغاية. قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا. وعمل كتبا في الطب. وكتابا لليهود سماه كتاب "الدلالة" ولعن كل من يكتبه بغير العلم العبراني. ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصححها".

ولم يكتم البغدادي نقده لابن سينا وفلسفته قال: "وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة الذي أتم به فلسفته التي لا تزداد بالتمام إلا نقصا".

ومن قبل البغدادي نقد الغزالي فلسفة ابن سينا ومن بعده نقدها ابن رشد ويستطرد البغدادي إلى نقد ابن سينا في الكيمياء فيقول:

"وكلما أمعنت في كتب القدماء ازددت فيها رغبة، وفي كتب ابن سينا زهادة واطلعت على بطلان الكيمياء (تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة) وخلصت من ضلالتين موبقتين وتضاعف شكري لله تعالى على ذلك. فإنما أكثر الناس قد هلكوا بكتب ابن سينا في الكيمياء".

---

(٤١) عاش موسى بن ميمون في الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي وهو معروف عند الفرنجة باسم ميمونيد وتعلم العربية وعلوم العرب وترجم كتبهم ثم حاول خلط الفلسفة اليهودية بفلسفة أرسطو – وكانت قد ذاعت على يد ابن رشد واضطهده المسيحيون في الأندلس فهجرها إلى مصر في عهد صلاح الدين فأكرم مثواه صلاح الدين وقربه بل جعله طبيبا له.

واليهود يسمونه موسى الثاني أو أفلاطون اليهود. وله كتاب سماه مرشد الحيران.

والتاريخ يحتفظ للبغدادي بفضله، في تصحيح خطأ جالينوس والأطباء بعده، باستعمال المنهج الإسلامي، إذ تقلب في البلاد ونقب في القبور يستقرئ ويشاهد وينوع التجارب ويستنبط منها.

قال في كتابه: (الإفادة والاعتبار): "والحس أقوى دليلا من السمع فإنجالينوس وإن كان في الدرجة العليا في التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه، فإن الحس أصدق منه. فمن ذلك عظم الفك الأسفل فإن الكل أطبقوا أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك، وقولنا الكل إنما نعني به جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا... والذي شاهدناه من حال هذا العضو، أنه عظم واحد وليس فيه مفصل أصلا. واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات... ثم استعنا بجماعة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه، ثم إني اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت... ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق. وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة".

وفي غير هذا أيضا لا يأخذ أقوال جالينوس قضايا مسلمة، بل يتحراها مثل أن يقول في شأن العجز "أما العجز من العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظما واحدا... ثم إني اعتبرته في جثة واحدة فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس. وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا جثتين فقط فإني وجدته فيهما عظما واحدا وهو في الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل".

وليس كهذا الاستقراء أو التجريب دقة في سعته، وتنويعه، وتدليله على فساد المنطق اليوناني من عهد جالينوس. فالبغدادي قد أمعن الاستقصاء في الاستقراء حتى بلغ حد الإحاطة الموصلة للقطع في شأن الفك الأسفل، ولم يكتف بالمعاصرين بل زار قبور الغابرين من قرون سحيقة في القدم في (بوصير) على عهد الفراعنة. ثم عهد المعاصرين لجالينوس.

والقارئ يلاحظ قول البغدادي "وقولنا الكل إنما نعني به جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح وحده وجعله دأبه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا".

فهو يجعل جالينوس وحده في مقام الكل، لأنه هو الذي شرح أي شاهد والباقون نقلة.

١٧- القزويني (٦٠٥- ٦٨٢هـ) (١٢٠٨- ١٢٨٣م): القزويني فقيه وإمام في الحديث ومفسر للقرآن وقاض و"جغرافي" من نسل أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وهو بكل ثقافته ممثل صدوق للمنهج العلمي في فروع العلم الإسلامي. لذلك تقرأ نصوص القرآن في مبادئه وتنفيذها فيشير إلى قوله تعالى: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج).

ويوصي المتعلم فيقول: "ولتنظر إلى الكواكب وكثرتها واختلاف ألوانها.. ولتنظر إلى السحاب.. كيف.. وكيف.." فهو يقصد بالنظر (المشاهدة والاعتبار) والبحث عن العلة من عدة وجوده ويورد الأصول في نص واضح جامع حيث يقول: "وليس المراد تغليب الحدقة نحوها... والمراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها.. والفكر في المعقولات لا يتأتى إلا لمن له خبرة بالعلوم والرياضيات بعد تحسين الأخلاق وتهذيب النفس..".

فهو يشترط على الباحث عن الحكمة بالنظر والاستقراء أن يتزود بفنون متعددة من العلوم والرياضيات تؤهله بالمعارف الحقة للاستنباط، ويزيد تحديدا بإيجاب العلم "بالرياضيات والعلوم" فهذه إضافة للتفكير الرياضي مقتفيا أثر الكندي وابن الهيثم وجابر وابن سينا والبيروني والفلكيين. وسنرى ذلك منهج كوبرنيق وجاليلو في أوائل عصر النهضة الأوربية.

ويورد الأصل العام وهو الأخلاق الجديرة بالباحث والطريقة الواجب سلوكها وكل ذلك يدخل في شروط القياس من البدء بالعلم والتثبيت في التجريب وترك العجلة واستماع الغير وإعادة الامتحان مع الدربة والفهم لا مجرد الحفظ الخ. الخ ولذلك يقول هذا الفقيه المحدث وعالم الطبيعة: "وإياك أن تغتر أو تعتل إذا لم تصب مرة أو مرتين، فإن ذلك قد يكون لفقد شروط أو حدوث مانع. فإذا رأيت مغناطيسا لا يجذب الحديد فلا تنكر خاصيته واصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله حتى يتضح لك أمره".

وعلى هذا الأساس كتب كتابيه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) و(آثار البلاد وأخبار العباد). وبين أسباب تأليفه بأنه: "قد حصل لي بطريق السمع والبصر. والفكر والنظر حكم عجيبة وخواص غريبة، أحببت أن أقيدها" ومن ملاحظاته تقسيم المعادن أقساما ثلاثة "فمنها

ما ينطبع كالذهب والفضة والحديد والرصاص،ومنها ما لا ينطبع كالياقوت والفيروز والزبرجد، ومنها معادن الأرض كالنفط والكبريت". فهو قد أجرى على كل ذلك تجاربه.

١٨- ابن النفيس (٦٧٨هـ - ١٢٩٦م): فقيه شافعي طبيب، تخرج في الأزهر وتولى تدريس الفقه الشافعي في إحدى مدارس الأزهر وهي: "المدرسة المسرورية". وله مكانة في "طبقات الشافعية". كما درس اللغة والإشارات لابن سينا في المنطق، وألف المختار في علم أصول الحديث والرسالة الكاملية في السيرة النبوية.

فهذا عالم موسوعي الفكر سيشتغل بالطب في بمارستان قلاوون، وهو مستشفى قائم للآن قريبا من الأزهر. وسيوصي له بمكتبته. عاش أعزب، ومارس الطب والتشريح، ووضع في الطب تصانيف قال عنها: "ولو لم أعلم أنها تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها" مما يفصح عن تقديره لأثر كشوفه على الفكر الإنساني وهو يقول عن طريقته في تصديره لكتابه (تشريح القانون):

"إننا نعتمد في تعرف حدود الأعضاء الباطنية على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر،خاصة الفاضل جالينوس... أما منافع كل واحد من الأعضاء، فإنا نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك من تقدمنا أو خالفه" وإنما اعتمد على جالينوس لأنه – كما روينا عن البغدادي – باشر التشريح بنفسه.

وظاهر قول ابن النفيس أنه يعتمد مسلمات تثبت باستقراء كامل من المباشرين لا النظريين وما ثبت لديه أما ما عداه فيخضع للنظر والبرهان وإن انعقد عليه إجماع الأطباء ومنهم ابن سينا (صاحب كتاب القانون في الطب).

وقد أدت أبحاث ابن النفيس في صدد القلب وتجاويفه وشريانه إلى مخالفة هذا الإجماع. ثم صار رأيه إجماعا بعد إذ نقله المترجمون إلى أوروبة وأبرزته المطابع في عدة طبعات في القرن السادس عشر، لكن أوربة نسبت هذا الكشف القديم منذ القرن الثالث عشر للميلاد إلى الطبيب الإنجليزي "هارفي" الذي قال به في القرن السابع عشر، وبعد أن تعلمه في إيطاليا حيث طبع ثم أجرى تجاربه فيه وأعلنه في سنة ١٦١٩ في لندن[٤٢].

---

(٤٢) في موسوعة (التراجم العالمية = ميشو).

١- يقول ابن النفيس عن قول ابن سينا في كتابه القانون: "قوله "وفيه ثلاثة بطون" وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط.. والتشريح يكذب ذلك".

٢- ويقول عن تغذية عضلة القلب: (قوله "ليكون له مستودع غذائي يتغذى به. وجعله البطين الأيمن يغذي القلب" لا يصح البتة فإن غذاء القلب من الدم المار من العروق المارة في جرمه".

ويقول الطبيب المعاصر العلامة بول غليونجي: "هذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها، وهي تضيف دليلا آخر على أن ابن النفيس مارس التشريح، كما تجعل منه أول من وصف الريان الإكليلي وفروعه" ويثبت بهذا أنه أول من كشف الدورة الدموية.

وملاحظة أنه مارس التشريح، مردها إلى امتناع الأطباء عن التعرض لحرمة الجثث حتى ساد رأي بعدم التحريم، وكان ابن النفيس فيه من السابقين(٤٣).

ويسوق الدكتور بول غليونجي الأدلة التي أوردها الأوربيون أنفسهم على طرق انتقال هذا الكشف العالمي الكبير إلى أوروبة،مؤيدة بتواريخها وأسماء النقلة. فالترجمة اللاتينية لكتاب تشريح القانون، موجودة بأوروبة من قبل،لكن نشرها حدث سنة ١٥٤٧ وتبعتها مؤلفات ثلاثة.

الأول: ظهر بعد سنوات في سنة ١٥٥٣ لسرفتوس (سرفيه) وفيه صفحات ست تنقل وصف ابن النفيس لمرور الدم من الشريان الرئوي إلى الوريد الرئوي عن طريق الرئة.

ولد هارفي سنة ١٥٧٨ ومات سنة ١٦٥٨ سافر إلى بادوا في إيطاليا حيث تتلمذ خمس سنين على (إكوابندنت)، وتلقى الدكتوراه في الطب من جامعة بادوا سنة ١٦٠٢. ثم عاد إلى انجلترا وتولى تدريس التشريح في كمبردج وأجرى تجاربه على الدورة الدموية وأعلن كشفها سنة ١٦١٩ وعارضه كثيرون، ولكن الملك ساعده وكان يأذن له بإجراء التجارب على الحيوانات البرية في غاباته – وعينه سنة ١٦٤٥ رئيسا لكلية نورتون في أكسفورد. وكان أرسطو يعتقد أن الدم ينبع من القلب ويجري في العروق ولا يرجع إلى القلب وآخرون قالوا: إنه ينبع من الكبد. ثم نشر سرفيه أبحاثه في القرن السادس عشر (وهو المشهور بعداء كالفن له حتى أعدم) ومن بعد سرفيه قال قول هكولمبو ومن بعدهما سيزلبينو ثم أكمل هارفي الدورة الدموية بعد إجراء تجاربه.

(٤٣) والأصل فيه كما ورد في رسالة الشافعي☹المحرم كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصا بينا لم يحل الاختلاف عليه لمن علمه) وما عدا ذلك لا يضيق الاجتهاد فيه.

والثاني: ظهر بعد سنوات ست أخرى لكولومبو مشتملا على الوصف ذاته سنة ١٥٥٩.

والثالث: بعد عشرين عاما لسيزا لبينو سنة ١٥٧٩. ومن تتابع الطبعات وتعدد المؤلفين صار الكشف العربي القديم معلومات عامة في جامعات إيطاليا،ولدى كل مشتغل بالطبيعة الإنسانية وجاء "هارفي" بعد ذلك إلى جامعة بادوا أشهر جامعات إيطاليا فتعلمه ثم أجرى تجاربه عليه في انجلترا وأعلنه سنة ١٦١٩ ونسبه الإنجليز إليه.

٣- ومن نظريات ابن النفيس في كتاب تشريح القانون:"أن كل شئ في جسم الإنسان ككل شئ في الأكوان بقدر" وبهذا يربط بين العضو في جسم الإنسان وبين وظيفته. كأن يقول: "وأما حاجة الرئة إلى الوريد الشرياني فلأن ينفذ إليها الدم الذي قد لطف وسخن في القلب (يقصد التجويف الأيمن) ليختلط ما يترشح من ذلك الدم من مسام فروع هذا العرق" ثم يقول عن الشريان الوريدي: "وأما حاجة الرئة إلى الشريان الوريدي... فبأن ينفذ فيه هذا الهواء المخالط لذلك الدم ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب" ويقول عن الرئة: "وكذلك تحتاج الرئة ليكون لحمها متخلخلا... وذلك ليكون كثير المسام واسعها والغرض من ذلك أن تمتلئ الفرج التي في جرمها هواء فيعتدل بذلك ويخرج مما يترشح إلى جرمها من الدم اللطيف الهوائي الذي لا يصلح لغذاء الرئة ولكنه يصلح لأن يخالط ذلك الهواء".

وإن المرء ليلاحظ أن ابن النفيس كالبغدادي خطأ جالينوس أو ابن سينا بالمشاهدة الناتجة عن استقراء كامل ينتج الدليل القطعي.

* * *

حسب القارئ أمثالا على المنهج العربي،هذا العدد من علماء المشرق العربي مضافا إليهم فيلسوف الأندلس ابن طفيل، وقد عملوا بالمنهج بطريقتين فلسفيتين متواصلتين، الأولى: منطقية أساسها المشاهدة والثانية تجريبية وفي هذه مجرستان: أولاهما مدرسة ملاحظة الطبيعة. وثانيتهما مدرسة الاعتماد على الرياضيات في الملاحظة.

* * *

والآن ننتقل إلى علماء العرب بالأندلس، وقد سبق لنا الحديث عن أحدهم وهو (ابن طفيل) الذي مارس "التجربة الحية" في علم الكلام أما الباقيان: فالثاني منهما ابن خلدون،وهو ينتقل بالعلوم الاجتماعية من استقراء أحوال الأشياء والأفراد إلى أحوال الأمم والدول لإنشاء علوم جديدة يدين العالم المعاصر له بسبقه فيها وأولهما (ابن رشد) ولعله أعظم الفلاسفة المسلمين

والممثل الأكبر لانتصار العلوم الإسلامية على صيحات الحرب التي أعلنتها الكنيسة في العصور الوسطى، وعصر الإحياء، على المنهج الإسلامي، فكانت من أسباب ذيوع المنهج في أوروبة بالقوة التي أودعتها فيه السماء والقدوة من عمل العلماء، والكتب التي ترجمت من تأليفهم المعروفة لنا الآن أو التي كانت متداولة في أوروبة في عصر الإحياء أوفي العصور الحديثة.

١٩- ابن رشد (٥٢٠- ٥٩٥هـ) (١١٢٦- ١١٩٨م): أبو الوليد بن رشد فقيه مالكي حجة، ما يزال كتابه في الفقه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) مرجعا للقضاء والفقه في المذهب وفي الفقه المقارن. وله المؤلفات الشهيرة في الفلسفة،وكتب في الطب والفلك فهو فيلسوف من طراز عالمي (إسلامي وأوروبي).

ولم يقتصر عمل ابن رشد على الفقه والفلسفة والفلك والطب، بل ولي قضاء أشبلية ثم قضاء قرطبة[٤٤] وبهذا الطابع التطبيقي لفقيه عظيم وبالعقل الموسوعي الذي نشئ تنشئة مواتية[٤٥] وسع فكره الأصول الشاملة لقواعد المعرفة، فبلغ الأوج وازداد علوا بالورع وبدار العلم والقضاء والسؤدد التي نتج فيها.

* * *

اتصل ابن رشد بفلسفة أرسطو فجمع كتبه وقارن ترجماتها واستخلص الصحيح منها وشرحه، فسمي عند أهل أوربة (بالشارح) وفي ذلك قول (رينان) في القرن الماضي: "ألقى

---

(٤٤) يقول عنه المرحوم الشيخ محمد الخضري في كتابه "تاريخ التشريع الإسلامي": (محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشهير "بالحفيد" كانت الدراية أغلب عليه من الرواية. لم ينشأ بالأندلس مثله كمالا وعلما وفضلا. من أحسن تآليفه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في الفقه. ذكر فيه أسباب الخلاف وعلل وجهه فأفاد وأمتع. فلا يعلم في وقته أنفع منه ولا أحسن سياقا. واختصر (المستصفى) في الأصول (توفي سنة ٥٩٥).

(٤٥) يقول الشيخ الخضري عن جده محمد بن أحمد: (زعيم فقهاء وقته في الأندلس ومقدمتهم، المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه. وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية. ألف كتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل" وكتاب "المقدمات" واختصر الكتب المبسوطة من تأليف يحيى بن إسحق وتهذيبه لكتاب الطحاوي في مشكل الآثار (توفي سنة ٥٢٠).

ولما امتحن أبو الوليد على يد خليفة عصر، وامتحن فكر، بواسطة الكنيسة زدته المحنة علوا وتلاحظ أن الشيخ الخضري لا يذكر عمله الفلسفي كما صنع في صدد الغزالي لأن كتابه خاص (بتاريخ التشريع الإسلامي).

أرسطو على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غوامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة تفسرها وتشرح غوامضها".

ومن محاربة علماء أوروبة في عصره ومن تحريم الكنيسة لتعليم كتب ابن رشد وحرق كتبه، صار طليعة الفكر الحر واستعمال العقل في أوروبة مع بدايات عصر النهضة الأوروبية، وعلا ذكره في التاريخ العالمي. وما كانت حرب الكنيسة له إلا محاولة لإسكات الصوت الجهير الذي تعالى في ضمير الإنسانية أذانا بالحضارة الإسلامية ومنهاجها العلمي، وإعلانا عن ترجمات كتبها التي تملأ الأديرة ومكتبات الجامعات والأحبار والأمراء وغيرهم من المتعلمين من أهل أوروبة.

ألف ابن رشد كتبا كثيرة منها رده على كتاب الغزالي، (تهافت الفلاسفة) بكتاب (تهافت التهافت)، وفي السادسة والثلاثين من العمر كتب كتاب (الكليات في الطب). وتواترت تآليفه في الأخلاق والمنطق و"الطبيعة" و"تركيب الأجرام" وشروح الفارابي على مختلف المسائل، والرد على ابن سينا في تقسيم المخلوقات.

وفي شرحه لأرسطو، بين ما يخالف فيه أرسطو الكتب المنزلة ورد عليه.

وذكر له "رينان" نقلا عن فهرست عربي ٧٨ رسالة وكتابا في الفلسفة والفقه والطب ما يزال متداولا منها (تهافت التهافت) (وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال) و(الكشف عن مناهج الأدلة) و(من وراء الطبيعة) (وبداية المجتهد ونهاية المقتصد)، وكلها مترجمة إلى العبرية واللاتينية ما عدا بداية المجتهد.

أحاطت أوروبة بترجمات ابن رشد وشروحه منذ مطلع القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجري) وعرفت كتب أرسطو عن طريقه ولم تعرفها عن طريق اليونان إلا بعد أن فتح الله القسطنطينية للإسلام سنة ١٤٥٣، وتركها أحبار الأديرة إلى روما حاملين ذخائر الكنيسة البيزنطية، فنقلت من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة لأول مرة أي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

وكانت حملات الكنيسة على ابن رشد وأرسطو كما كان سعار المتعصبين ضد ابن رشد من أسباب تمسك المتحررين بآرائه، فمنذ القرن الرابع عشر يعلن بترارك (١٣٧٤) الكاتب الإيطالي تعصبه ضد ابن رشد بقوله: "ذلك الكلب الكلب الذي هاجه غيظ ممقوت على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية" وما قال ابن رشد في السيد المسيح إلا إيمان المسلمين به.

اشتهر ابن رشد بتمجيده للعقل وأنه لا يرى فصالا بل يرى اتصالا بين الفلسفة والشريعة، وأنها أختها الرضيعة. وطال أمر الجدل بين أنصار ابن رشد من علماء اللاهوت في أوروبة وبين خصومه منهم منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر الميلادي.

ففي سنة ١٢٠٩ – ولم يكن قد مضى على وفاة ابن رشد إلا عشر سنين – أصدر الباباليون العاشر من روما منشورا بابويا بتفكير أهل أوروبة من أنصاره.

وفي سنة ١٢٦٩ هاجم أسقف باريس فلسفة ابن رشد، وعانت أوروبة من محاربة الكنيسة للحرية الفكرية، بعض ما عاناه المسلمون من محاربة الأسبان لحرية المسلمين الدينية وقضت محكمة الكنيسة في سنة ١٥١٢ بإحراق الكاهن الهولندي فان ريزويك لتمسكه بآراء ابن رشد، فسيق إلى الحريق وهو يقول في الطريق: (إن أعلم العلماء أرسطو وشارحه ابن رشد وهما أقرب للحقيقة وبهما اهتديت وبفضلهما رأيت النور الذي كنت عنه عميا).

أحرق الأسبان بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ في أيديهم كل كتب ابن رشد من بين ٨٠ ألف كتاب عربي. وفي المدة بين سنة ١٦١١، ١٦٧٠ لم يبق كتاب إسلامي في إسبانيا إلا ما ظهر فيما بعد مهربا في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا وفلورنسة بإيطاليا أو باريس أو في المكتبات العبرية.

ولكن كتب ابن رشد كانت قد ترجمت إلى اللاتينية من قبل، وعمت مواطن المعرفة ثم طبعت في القرن الخامس عشر بعد اختراع المطبعة فاحتلت ترجماتها أماكنها في مكتبات أوروبة وأقبل الأوروبيون على الفكر الحر متابعين لعلماء أدركوا فضل الحرية الفكرية وفي طليعتهم روجير بيكون (١٢٩٤)، وهو يقول عن ابن رشد ما يعتبر تلخيصا وافيا لأثره على عقول الأوربيين:

"إنه فيلسوف متعمق، صحح كثيرا من أغلاط الفكر الإنساني وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها. وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التي تناولها ببحثه".

* * *

يرى ابن رشد: أن الكتب السماوية تتغيا توجيه الناس إلى العمل الصالح ليبلغوا الكمال الاجتماعي وأن "من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانا بالله تعالى" فالعلم طريق مؤكد لإثبات الربوبية والتوحيد والقدرة، حيث كل شئ موزون. ويعلن أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالدرس والتفكير والطهارة وتكميل العقل المفكر. ولا يكفي لذلك التأمل العقيم الذي يزعمه بعض المتصوفة. وينعى على الغزالي تصريحه للجمهور بتداول الحكمة (الفلسفة) زعما بأن العلم يحصل بالخلوة والفكرة فيقول عنه: "صار الناس بهذا التشويش والخلط فرقتين فرقة انتدبت لذم الحكماء، وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم صرفه إلى الحكمة. وهذا خطأ كله. بل ينبغي أن يفسر الشرع على ظاهره ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة (الفلسفة) لأن التصريح بذلك هو تصريح بنتائج الحكمة لهم دون أن يكون عندهم برهان عليها".

وفي كتابه الذي سماه (التفرقة بين الإسلام والزندقة) عدد أصناف التأويلات. وقطع بأن المؤول ليس كافرا، وإن خرق الإجماع في التأويل. وفي كتاب تال، أباح دراسة آراء الفلاسفة السابقين "فما كان موافقا للحق قبلناه.. وما كان منها غير موافق نبهنا عليه وحذرنا منه" و(نحن نقطع أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على طريق التأويل العربي)، أي تفسير المتشابه في حدود معاني المحكم أو استعمال المجاز وفقا للسان العربي.

والناس عنده ثلاثة أقسام قسم ليس من أهل التأويل أصلا وهم الخطابيون وهم الجمهور الغالب، وقسم من أهل التأويل وهم الجدليون بالطبع، وقسم هم أهل التأويل اليقيني، وهم البرهانيون بالطبع والصناعة. ومقصود الشارع تعلم العلم الحق والعمل الحق. فالعلم الحق معرفة الله وسائر الموجودات على ما هي عليه والعمل الحق هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة والكتاب العزيز يخاطب الأقسام الثلاثة.

وأعقل أهل الإسلام هم الصدر الأول، فإنهم صاروا إلى الفضيلة الكاملة والتقوى دون تأويل الأقاويل. ومن كان منهم وقف على تأويل لم يصرح به. ونادى ابن رشد باستقاء المعرفة من كل مصدر، فثمرات العقل البشري ملك لكل البشر.

ومن مقولاته "هذه صناعة الفقه، والفقه نفسه، لم يكمل النظر فيها إلا في زمن طويل، ولو رام إنسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من أهل المذاهب، لكان أهلا أن يضحك منه لكون ذلك ممتنعا مع وجود ذلك مفروغا منه" ومنها "المذاهب في كل العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها بعضا.. ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين، وإما مخطئين معذورين، ولذلك قال

عليه الصلاة والسلام: "إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر" وأي حاكم أعظم من الذي يحكم على الوجود وهم العلماء".

ومن مقولاته في العدل وفي الاجتماع "إن الحاكم الظالم يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها".

"وإن أفظع الظلم، ظلم القساوسة"، فهو الذي عطل العقل. ومثله "ظلم الرجل للمرأة وهي الثلثان من عدد السكان، هو الذي قضى عليهن أن يعشن كالنبات عالة على الرجل دون عمل. وإن حالة العبودية التي نشأ الرجال عليها النساء، أتلفت مواهبهن، وبهذا شقيت المدن لأن عدد النساء فيها يربو على عدد الرجال وهن يعجزن عن تحصيل عيشهن إلا عن طريق الرجل".

وجاء فلاسفة الغرب في القرون التالية في آثار ابن رشد: ديكارت – لبنتز – ماليرانش – وتلاميذهم يمجدون العقل ويطالبون باستقلاله. وما تزال جدران جامعة باريس (كلية الطب) تزدان بصور الرازي وابن سينا وابن رشد، فالثلاثة أطباء وفلاسفة وفيهم فقيهان لكل منهم في الفقه درجته.

٢٠- ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨هـ) (١٣٢٢- ١٤٠٦) ولد ابن خلدون في تونس، وحبس في فاس ليخرج من محبسه فيتولى ديوان المظالم. ثم يعبر إلى الأندلس فيعينه سلطان غرناطة سفيرا في إشبيلية فقد صارت الأندلس شراذم ودويلات، لتؤذن شمسها بالمغيب عند سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م.

ثم اختار بحسه التاريخي الاستقرار في القاهرة، فيمم شطرها عن طريق تونس فبلغها سنة ٧٨٤هـ ليبقى فيها حتى سنة ٨٠٨ يمارس الفقه ويلي قضاء المالكية، ويمثل المسلمين في وفد المفاوضات مع تيمور لنك ملك المغول، مثلما مثلهم ابن تيمية في وفد المفاوضات مع غازان ملك التتار سنة ٦٩٩. وفي مصر وضع ابن خلدون كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر).

وطلع الكتاب على الناس بفرع جديد من فروع العلم بالتاريخ هو منهج "العبرة" بواقع المشاهدة من أحوال الدول وأدوارها في الوجود، لا مجرد رواية الحوادث على ما جرت به أقلام المؤرخين قبله، وكتابه تفسير للتاريخ على أساس استقراء الحياة الواقعة للناس وملاحظة معايشهم وخصائصهم واستنباط قواعد عامة أو كليات ترد إليها الفروع المختلفة، وهكذا أنشأ بمنهج أصول الفقه علما جديدا سمي علم الاجتماع.

والكتاب يتضمن ثلاثة كتب أولها ما سماه المؤرخون "مقدمة ابن خلدون" يحتوي التفسير الاجتماعي للتاريخ بفلسفته الاقتصادية والإدارية والعمرانية والزمنية والعرقية، كما ظهر له من استقراء أحوال الأمم أو أصول الطبيعة أو الموارد أو الأبدان أو الألوان أو الحضارة أو البداوة أو طباع الرعاة والرعية وما يتصل بالدين والمعاهد والمساجد والمعابد أو الحروب والجيوش وفنون المعاش.

والكتابان الثاني والثالث يشتملان على أخبار العرب حتى القرن الثامن للهجرة بما في ذلك دول الإسلام في القارات الثلاث المعروفة حتى ذلك الزمان. ثم أخبار البربر ودولهم والتعليق على أصولهم.

وكما يهتم ابن خلدون بالظواهر الخارجة عن الاجتماع مثل العقيدة والطقس والبيئة، يهتم بالظواهر الداخلة فيه مثل علاقات الناس والأسر والحكام والمحكومين ليستخلص أن: "الإنسان مدني بطبعه وسعادته غاية مجتمعه وأن الفطرة تدفع الحيوان إلى الاجتماع، أما الإنسان فتدفعه الفطرة والفكر معا".

* * *

فهذا الفقيه يأخذ كسابقيه بأمره تعالى بالسير في الأرض والنظر إلى سنن الكون في أزمنة وأمكنة قريبة أو بعيدة، فكان استقراؤه أقرب إلى الحقيقة وأسعفه التاريخ العربي فيما رآه من واقع دوله في كل مرحلة إمارة بعد إمارة وإقليما بعد إقليم وفي الحر والبرد والخصب والجدب والنهوض والتعثر. وتكاثرت بين يديه عناصر الاستقراء ووجوه التعليل وما يترتب عليها.

يرى للطقس أثره في جسم الإنسان وخلقه وحضارة مجتمعه ولذلك صار أوفق الأقاليم للحضارة أكثرها اعتدال مناخ.

ويرى البيئة الخصيبة تؤثر في الفرد والدولة فتغرى بالفراغ وتميت الشجاعة أما الجدب فيدفع للكفاح.

ويرى للأمم أطوارا ثلاثة. البداوة والغزو والحضارة ثم تأخذها غمرة النعيم فتغلبها دولة أخرى وهكذا تقوم الدول وتسقط وتعلو وتهبط.

ويروج للحرية الاقتصادية ويجعل من الفنون واللغة والعقيدة والتقاليد ظواهر تفسر نفسها بذاتها وتقيم الكيان الخاص للجماعة.

ومن الملاحظات ما يرقى إلى مستوى القوانين فهو يقول:

١- إن الدولة قد تنشأ بغير دين وتكون قوية. لكنها لا تبقى وتدوم إلا بالدين. لأن الدين وحده يجعل الدولة قوية ودائمة.

ذلك مصداق قوله تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) آل عمران ١٣٧ وقوله جل ثناؤه: (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءت رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) الروم ٩.

٢- إن العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شئ بعدها. وفي تاريخ أهل هذه الملة مصداق ذلك.

٣- إن للدول أعمارا طبيعية كالأشخاص الطبيعيين.

٤- إن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

٥- إن الفلاحة معاش المستضعفين.

٦- إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع.

٧- إن المدن الكبيرة والهياكل المرتفعة يشيدها الملك الكبير.

٨- إن القانون الذي نميز به الحق هو استقراء الواقع وما يتفق مع طبيعته فيقول:

"فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة: أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران لنميز ما يلحقه لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا قبلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا نميز به الحق من الباطل. بوجه برهاني

لا دخل للشك فيه. وحينئذ، فإذا سمعنا عن شئ من الأحوال الواقعة في العمران، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه،وهذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا كأن هذا علم مستقل بنفسه".

ترجمت مقدمة ابن خلدون (الكتاب الأول) إلى اللاتينية مذ كانت العلوم لا تكتب في أوروبة إلا بتلك اللغة، ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبية بعد رقيها، فأخذ بفحوى المقدمة أوجست كونت (١٨٥٧) الفرنسي ومعاصروه ثم هربرت سبنسر الإنجليزي (١٩٠٣) وتلاميذه. ثم إميل دركهايم الفرنسي (١٩١٧) [٤٦] وتلاميذه حتى مانهايم (١٩٤٨) واليوم تتفرع على علم الاجتماع علوم متعددة تتداولها دراسات الجامعات في كل العالم.

نقف عند هذه الأسماء، وإن تحدثنا فيما بعد عن القياسين في النحو واللغة، فعلوم المغرب العربي والمشرق العربي تصدر عن مكشاة واحدة. وندع الكثير من عظماء العلماء بالأندلس أو بالمشرق لا نعرض لهم كالزهراوي (١٠١٣) الذي يصفه الطبيب المصري نجيب محفوظ باشا بأنه (فخر الجراحة عند العرب) كان طبيب عصر عبد الرحمن الناصر، وكالمجريطي (١٠٠٧)، ويطلق عليه أهل أوروبة (إقليدس الأندلس) والإدريسي (١١٧٠) أكبر جغرافي القرون الوسطى وأبناء زهر وغيرهم ممن تزخر بهم كتب المستشرقين المعاصرين والسابقين، إذ يجب الوقوف عند حد، لنخطو خطوة قصيرة نجد بعدها علم هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم والكثيرين ممن لم نذكرهم في أيدي العلماء في أوروبة في عصر الإحياء ليورثوه علماء عصر النهضة الحديثة.

١- ونحن نستصحب من هذا الباب، أن جدران كلية الطب في باريس ما تزال تزدان بصور الرازي وابن سينا وابن رشد، وأن أكثر من ذكرناه مفلاسفة، وإن كانوا كيماويين أو رياضيين أو أطباء أو فقهاء، ومنهم من ولي القضاء، وكلهم أصوليون.

٢- كما نستصحب مما ثبت في هذا الباب أن في تطبيق المنهج مدارس ثلاثا:

---

(٤٦) لما صحا الشرق من غفوته كان الإمام محمد عبده أول من درس مقدمة ابن خلدون في مدرسة دار العلوم من مائة عام في سنة ١٨٧٩ وفي آثار، تتلمذ الشيخ مصطفى عبد الرازق تلميذ محمد عبده على دركهايم في دراسته بالسوربون في العقد الأول من القرن الميلادي الحالي. ثم أعد رسالته عن الإمام الشافعي لتناقش في السوربون.

وفي سنة ١٩١٧ قدم طه حسين رسالته عن منهج ابن خلدون.

الأولى: هي المدرسة المنطقية التي تجري الاستنباط من المشاهدات، أي باستقراء ما هو كائن والاعتبار بدليله، وهذه مدرسة المتكلمين، تلمع فيها تجارب عملية للجاحظ، وعلمية لابن طفيل والغزالي الذي جعل نفسه محلا للتجربة لينتقل من الشك إلى النظر فالبصر فاليقين، وابن رشد الذي كان سفير الحرية الفكرية إلى العالم الأوروبي.

الثانية: مدرسة التجريبيين في الطبيعة الذين يستعملون للاستقراء ملاحظة طبائع الأشياء وخصائصها وتحليلها وتحقيقها واستنباط قوانينها ومبادئها.

وأستاذ هذه المدرسة جابر وتلاميذه الرازي وابن سينا وابن النفيس والبغدادي والتيفاشي والمسعودي وابن خلدون وكثيرون.

الثالثة: مدرسة التجريبيين الرياضيين الذين يستعملون المراصد والأجهزة والأدلة الحسابية والهندسية وقد يخترعون أدوات التجارب لدراسة الطبيعة والفلك. ومن أساطينها الكندي والخوارزمي وابن الهيثم والبيروني والقزويني.

والمدارس الثلاث، تجمعها التجربة وتفرق بينها أدواتها أو موضوعاتها أو أغراضها وهذه أيضا هي المدارس التي سيبلغ بها عصر النهضة شأوه ولكن على أيد غير عربية.